تفصيل النشأتين

و

تحصيل السعادتين

للراغب الأصفهاني

عني بنشره وتصحيحه الخطيب الشهير

السيد جواد شبر

٦٨١٢

شماره ثبت: ٠٠٥٢٩٩

تفصيل النشأتين
و
تحصيل السعادتين

للإمام أبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني
المتوفى في رأس المائة الخامسة قدس الله روحه آمين

عنى بنشره فضيلة الخطيب الشهيد

السيد جواد شبر

انتشارات الهجرة
ايران ـ قم ،ص .ب ٥٤

ترجمة المؤلف

قال في كشف الظنون : تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين للإمام أبي القاسم الحسين بن محمدبن المفضل الراغب الأصفهاني المتوفى فيرأس المائة الخامسة مختصرأوله : الحمد لله الذي أرسل بالنبوّة عبده.رتبه على ثلاثة وثلاثين باباً وفصل فيه النشأة الأولى والنشأة الأخرى وقال عند ذكر كتاب مفردات الفاظ القرآن العزيز له : قال السيوطي في طبقاته : كان في أوائل المائة الخامسة . ونقل عن خط الزركشي ما نصه : ذكر الإمام فخر الدين الرازي في (تأسيس التقديس في الأصول) أنالراغب من أئمة السنة وقرنه بالغزالي . ه

وقال عند ذكر (الذريعة إلى مكارم الشريعة) الذي هو كالمقدمة لكتابنا هذا على ما يظهر من أسلوب الكتابين : قيل ان الامام حجة الإسلام الغزالي كان يستصحب كتاب الذريعة دائماً ويستحسنه لنفاسته .

وقال عندذكر تفسيره: هو تفسير معتبرفي مجلد أورد في أوله مقدمات نافعة في التفسير وطرزه (اسلوبه) انه أورد جملا من الآيات ثم فسرها تفسيراً مشبعاً وهو أحد مآخذ أنوار التنزيل للبيضاوي . غير أن بعضهم جعل مفردات الراغب أحد مآخذ القاضي البيضاوي فيتفسيره، ولا تنافي بين القولين. وبالجملة فالإمام الراغبممن أجمعتعلى فضله العلماءالاعلام على اختلاف مشاربهم وتنوع مذاهبهم تغمده الله بالرضوان وأسكنه فراديس الجنان ووفق أرباب الهمم العلية لنشرمؤلفاته والاستضاءة بنور مشكاته .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل بالنبوة عبده . وعلمنا على لسانه حمده ورغبنا فيما عنده ونسأله أن يصلي على نبيه محمد وعلى آله وان يهدينا بأوضح دليل: إلى أنجح سبيل . وبأقوى حجة . إلى أوضح محجة

قال الشيخ أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب : هـذه رسالة في تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين

أما النشأتان فإحداهما المذكورة في قوله تعالى: « ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون » . والثانية المذكورة في قوله تعالى : « ثم ينشىء النشأة الآخرة ان الله على كل شيء قدير »

وأما السعادتان فاحداهما المذكورة في قوله تعالى : اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم » . والثانية المذكورة في قوله تعالى : « وأما الذين سعدوا ففي الجنة »

وقـد عملت ذلك للاستاذ الكريم أيده الله لما رأيته معنياً باكتساب الإنسانية الموصلة إلى السعادتين أعانه الله على استفادتها حتى يصير حاوياً لنوعها ومحامياً على معناها ومراعياً لخصائصها فقد كاد أو قد كان قولنا الانسان لفظاً مطلقاً على معنى غير موجود واسماً لحيوان غير معهود كعنقاء مغرب ونحو ذلك من الاسماء التي لا معاني لهـا كما قال تعالى في صفة الاصنام المسماة آلهة : « إن هي إلا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما أنزل

الله بهـــا من سلطان » . وقال جل جلاله : « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها » فجعلها اسماء بلا مسمى ولم أعن بالإنسان كل حيوان منتصب القامـــة عريض الظفر أملس البشرة ضاحك الوجه ممن ينطقون ولكن عن الهوى . ويتعلمون ولكن ما يضرهم ولا ينفعهم . ويعلمون ولكن ظاهراً من الحيـــاة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون . ويكتبون الكتاب بأيديهم ولكن يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا . ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق . ويؤمنون ولكن بالجبت والطاغوت. ويعبدون ولكن من دون الله مايضرهم ولا ينفعهم . ويبيتون ولكن ما لا يرضى من القول. ويأتون الصلاة ولكن كسالى ولا يذكرون الله إلا قليلا . ويصلون ولكنهم من المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ويذكرون ولكن إذا ذكّروا لا يذكرون . ويدعون ولكن مع الله إلهـــاً آخر . وينفقون ولكن لا ينفقون إلا وهم كارهون، ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يبغون. ويخلقون ولكن يخلقون إفكاً. فهؤلاء وإن كانوا بالصورة المحسوسة ناساً فهم بالصورة المعقولة لا ناس ولا نسناس كما قـــال أمير المؤمنين علي بن ابي طالب كرم الله وجهه : يا أشباه الرجال ولا رجال بل هم من الانس المذكور في قوله تعالى: «شياطين الانس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » وما أرى البحتري إذا اعتبر جُل الناس بالخُلق لا الخَلق مبعداً في قوله :

لم يبق من جل هذا الناس باقية
يناهـــا الوهم إلا هـــذه الصور

ولا من يقول :

فجلهم إذا فكرت فيهم حمير أو كلاب أو ذئاب

ولا تحسبن هـــذه الابيات أقوالا شعرية وإطلاقات مجازية فإن الله تعالى يقول: «أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا» . وقد أنبأت في هذه الرسالة عن جملة الموجودات ومكان الانسان منها ومبدأها ومنشأها ومنتهاها وما جعل له من السعادة في الدارين باكتساب الانسانية وكيفية التطرق اليها وابتدأتُ بالتنبيه على وجوب معرفة الانسان ذاته فمن علم أن شيئاً ما هو مما يجب أن يُعلم فإنه وإن لم يعلمه فقد يحصل له بذلك علم . فمن العلم أن تعلم انك لاتعلم وعلم الانسان بجهله أحد العلمين . قال ابن عباس رضي الله عنه : من لم يجد مس نقص الجهل في عقله وذل المعصية في قلبه ولم يستبن الخلة في لسانه عند كلال حده عن حد خصمه فليس ممن ينزع عن دنية ولا يرغب عن حال معجزة ولا يكترث لفصل ما بين حجة وشبهة . وبقدر معرفة منفعة الشيء يحرص الانسان على طلبه ويصبر على تحمل المشقة في تحصيله ولذلك قال الله تعالى في صفة من جهل نفع مطلوبه : (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) . فاعرف أيها الفاضل فضيلة الإنسانية وما أعد من الفلاح لمن تزكّى كما قال تعالى: (قد أفلح من زكاها) فإنها :

هي المكارم لاقعبان(١) من لبن شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

ولايتكادنّك (٢) بعد الشقة وفعل من يروقك طاقه ورواقـــه فإن جاوزت كسوته إليه فليس وراء عبّادان (٣) قرية بل لا تراه إلا عبداً لحجر أو مدر أو بهيمة أو ظعينة كمن ذمه النبي ﷺ بقوله : تعس عبد

---

(١) مثنى قعب وهو القدح الضخم

(٢) تكادني الامر شق على كتكادني

(٣) عبادان جزيرة احاط بها شعبتا دجلة ساكنين في بحر فارس

الدرهم تعس عبد الدينار تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش . فإنك في عنفوان شبابك ولدونة أغصانك .

واعلم انه ليس يحسن بذي همة قد أحسن الله إليه في خلقه وخُلقه وقيض له من رباه فأحسن تربيته وأزاح في معاونته بعد بلوغه علته أن يرضى بأن يكون حيواناً وقد أمكنه أن يصير إنساناً أو بأن يكون إنساناً وقد أمكنه أن يصير ملكاً أو بأن يكون ملكاً وقد أمكنه أن يصير ملكاً في مقعد صدق عند مليك مقتدر فتقوم الملائكة بخدمته كما قال الله تعالى: «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . وفقنا الله لذلك ولا جعلنا من الكسالى الموصوفين بقوله تعالى : (لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة) جعلنا الله وإياك من المؤمنين الموصوفين بقوله تعالى : (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين) وبقوله : (أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) حتى لا تغتر بما هو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

تراجم ابواب الكتاب

وهي ثلاثة وثلاثون باباً

١ـ أ في معرفة الإنسان نفسه
٢ـ ب في أجناس الموجودات وموضع الإنسان منها
٣ـ ج في العناصر التي منها أوجد الإنسان
٤ـ د في قوى الأشياء التي جمعت في الانسان
٥ـ ه في تكون الانسان شيئاً فشيئاً حتى يصير إنسانا كاملا
٦ـ و في ظهور الانسان في شعار الموجودات وتخصصه بقوة شيء فشيء منها
٧ـ ز في ماهية الانسان
٨ـ ح في كون الانسان مستصلحا للدارين
٩ـ ط في تمثيل ذات الإنسان وتصويره
١٠ـ ي في كون الانسان هو المقصود من العالم وإيجاد ما عداه لأجله
١١ـ يا في الغرض الذي من أجله أوجد الانسان ومنازلهم
١٢ـ يب في تفاوت الناس واختلافهم
١٣ـ يج في سبب تفاوت الناس
١٤ـ يد في بيان الشجرة النبوية وفضلها على جوهر سائر البرية
١٥ـ يه في هداية الاشياء إلى مصالحها
١٦ـ يو في سعادة الانسان ونزوعه إليها
١٧ـ يز في حال الانسان في دنياه وما يحتاج أن يتزود منها
١٨ـ يح في تظاهر العقل والشرع وافتقار أحدهما إلى الآخر

١٩- يط في فضيلة الشرع
٢٠- ك في بيان ان من لم يتخصص بالشرع وعبادة الرب فليس بإنسان
٢١- كا في ما يتعلق به الشرع من الافعال
٢٢-كب في تحقيق العبادة
٢٣-كج في أنواع العبادة من العلم والعمل
٢٤-كد في كون الغرض من العبادة تطهير النفس واجتلاب صحتها
٢٥- كه في بيان الامراض والانجاس التي لا يمكن إزالتها إلا بالشرع
٢٦-كو في القوى التي تجب إزالة أمراضها وأنجاسها والمعاني التي تحصل بذلك
٢٧- كز في كون الانسان مفطوراً على إصلاح النفس
٢٨- كح في سبب رذيلة الانسان وتأخره عن الفضيلة
٢٩-كط في احوال الناس ومنازلهم في تعاطي الأفعال المحمودة والمذمومة وطرقها
٣٠- ل في ارتداد الانسان من طريق الخير والشر
٣١- لا في قدر ما في الوسع من اكتساب السعادة
٣٢- لب في إثبات المعاد وفضيلة الموت وما يحصل له بعده
٣٣- لج في فضيلة الانسان إذا شرف على الملك

الباب الاول

في معرفة الانسان نفسه

قالت الحكماء مرة : أول ما يلزم الانسان معرفته نفسه وقالوامرة أول ما يلزمه معرفة الله تعالى . وليس بين هذين القولين منافاة فإنهم عنو بالأول حيث قالوا معرفة النفس الاول من حيث الترتيب الصناعي وعنو (بالأول أيضا) حيث قالوا معرفة الله الأول من حيث الشرف والفضل فإن معرفة الله هي أفضل المعارف . وفي معرفة النفس اطلاع على أمور كثيرة :

احدها : انه بواسطتها يتوصل الانسان إلى معرفة غيرها ومن جهلها جهل كل ما عداها

والثاني : ان نفس الانسان مجمع الموجودات كما نبين بعد فمن عرفها فقد عرف الموجودات ولذلك قال الله تعالى : (أولم يتفكروا في انفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون) تنبيها على انهم لو تدبروا أنفسهم وعرفوها عرفوا بمعرفتها حقائق الموجودات فانيها وباقيها وعرفوا بها حقيقة السماوات والارضين ولما أنكروا البعث الذي هو لقاء ربهم قال الله : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) . وقال (وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون)

والثالث : ان من عرف نفسه عرف العالم ومن عرفه صار في حكم المشاهد لله تعالى وهو يخلق السماوات والارض ولم يكن كالكفرة الجهلة

الذين اثكلهم (١) هذه المنزلة فقال فيهم (ما أشهدتهم خلق السماوات والارض ولا خلق انفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا)

والرابع : انه يعرف بمعرفة روحه العالم الروحاني وبقاءه وبمعرفة جسده العالم الجسداني وفناءه فيعرف خسة الفانيات وشرف الباقيات الصالحات

والخامس : ان من عرف نفسه عرف اعداءه الكامنة فيها المشار اليها بقوله ﷺ: اعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك فيستعيذ منها . كما قال عليه الصلاة والسلام : اللهم الهمني رشدي وأعذني من شر نفسي . وقال : لا تكلني إلى نفسي طرفة عين فأهلك. ومن عرف أعداءه الكامنة ومكامنها وكيفية انبعاثها احسن ان يحترز منها وان يجاهدها فيستحق ما وعد الله به المجاهدين في سبيله ومن لم يعرفها فجدير ان يتراءى له عدوه الذي هو الهوى بصورة العقل فيتصور له الباطل بصورة الحق وقد قال النبي ﷺ : الهوى شيطان بل قال هو إله يعبد من دون الله . وقد روي انه قال ﷺ : ما عبد في الارض إله ابغض إلى الله من الهوى ثم تلا (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه)

والسادس : ان من عرف نفسه عرف ان يسوسها ومن أحسن ان يسوس نفسه احسن ان يسوس العالم فيصير من خلفاء الله المذكورين في قوله تعالى (ويستخلفهم في الأرض) ومن الملوك المذكورين في قوله تعالى (وجعلكم ملوكا)

والسابع : ان من عرفها لم يجد عيبا في احد إلا رآه موجوداً في ذاته إما ظاهراً منبعثا او كامنا فيه ككمون النار في الحجر فلا يكون هماز آولماز آ

---

(١) الثكلى المرأة التي فقدت ولدها واثكلها الله جعلها ثكلى

وعياباً فإن كل عيب تراءى له من غيره وجده في نفسه ومن رأى عيب نفسه فجدير أن يكون ممن دعا له النبي ﷺ بقوله: رحم الله امرءاً شغله عيبه عن عيوب غيره . ومعرفة عيب النفس صعب من حيث ان كل إنسان يحب نفسه وحبه لها يعميه عن معايبها كما قال ﷺ : حبك الشيء يعمي ويصم ، والأعمى والأصم عن عيب الشيء قد يعجب به . ولاضرر أعظم من إعجاب المرء بنفسه وقد قال بعض الحكماء : الكاذب في نهاية البعد عن الحق والمرائي أسوأ حالا من الكاذب لأن الكاذب يكذب بقوله فقط والمرائي يكذب بقوله وفعله . قال : وأسوأ حالا منهما المعجب بنفسه لأن الكاذب والمرائي قد ينتفع بهما والمعجب بنفسه لا نفع فيه بوجه ولأنهما قد ينفع وينجع وعظك فيهما لعلمهما بنفسهما . والمعجب بنفسه لجهله يظنك في وعظك إياه ملغياً

والثامن : ان من عرف نفسه فقد عرف الله تعالى فقد روي انه ما أنزل الله من كتاب إلا وفيه : اعرف نفسك يا إنسان تعرف ربك وهذا معنى قوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) الآية ، وفي هذا الخبر ثلاث تأويلات : أحدها ان بمعرفة النفس يتوصل إلى معرفة الله عز وجل كقولك اعرف العربية تعرف الفقه أي بمعرفة العربية يتوصل إلى معرفة الفقه وإن كان بينهما وسائط . والثاني انه إذا حصل معرفة النفس حصل بحصولها معرفة الله بلا فاصل كقولك بطلوع الشمس يحصل الضوء فيكون الضوء مقترناً بطلوعها غير متأخر عنها بزمان . والثالث ان معرفة الله تعالى ليست تثبت إلا أن تعرف النفس لأنك إذا عرفتها على الحقيقة فقد عرفت العالم فإذا عرفت العالم عرفت انه محدث وان لابد له من محدث لا يشبه المحدث بوجه، وذلك هو غاية معرفة الله تعالى .

قالوا وعلى هذا دل معنى قول أمير المؤمنين كرم الله وجهه : ان العقل لإقامة رسم العبودية لا لإدراك الربوبية ثم أنشأ يقول :

كيفية النفس ليس المرء يعرفها فكيف كيفية الجبار في القدم
هو الذي أنشأ الأشيـــاء مبتدئاً فكيف يدركه مستحدث النسم

وقال أيضاً :

العجز عن درك الادراك ادراك والبحث عن سرذات السر إشراك
وفي سرائر همّـــات الورى همم عن ذا الذي عجزت جن وأملاك
يهدي إليه الذي منه إليه هدى مستدركاً وولي الله مدراك

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يا من غاية معرفته القصور عن معرفته . وقال الله تعالى (نسوا الله فأنساهم أنفسهم) تنبيها على انهم لو عرفوا أنفسهم لعرفوا الله فلما جهلوه دل جهلهم إياه على جهلهم إياها

الباب الثاني

في ذكر أجناس الموجودات وموضع الإنسان منها

اعلم أن الله تعالى هو الواجب الوجود الذي لا سبب لوجوده بل هو سبب كل موجود . وكل موجود فمنه وبه تعالى وجوده . والموجودات ضربان: المعقولات العلوية والمحسوسات السفلية وإيجاده تعالى للمعقولات العلوية قبـــل إيجاده للمحسوسات السفلية كما روي انه أول ما خلق الله تعالى القلم ثم اللوح وقال أجر بمـــا هو كائن إلى يوم القيامة . وروي أنه أول مـــا خلق الله العقل فقـــال له أقبـــل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال بعزتي وجلالي ماخلقت خلقاً أكرم علي منك بك آخذ وبك أعطي

ولك الثواب وعليك العقاب ، وليس المراد بالعقل ههنا العقول البشرية بل الإشارة به إلى جوهر شريف عنه تنبعث العقول البشرية . وقال قوم، العقل ههنا عبارة عن القلم المذكور في الخبر الآخر والله أعلم

ثم أوجد الله تعالى الروحانيات الذين لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون وإيجاد هذه الأشياء على سبيل الابداع . والابداع هو إيجاد الشيء لا عن شيء موجود من قبل ثم خلق الاركان الاربعة والجمادات والناميات والحيوانات وختم بالصورة الانسانية كما دل عليه النبي ﷺ بقوله : خلق الله تعالى يوم الاحد كذا ويوم الاثنين كذا إلى أن قال وخلق الانسان يوم الجمعة آخر النهار . والخلق في أكثر الاحوال يقال في إيجاد الشيء من الشيء قبله كخلق الانسان من التراب ويقتضي تركيباً ولذلك قال الله تعالى : (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) وإلى الاشياء المركبة أشار بقوله تعالى : (أولم يروا إلى الارض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم) . واعلم ان كل شيء من المبدعات فتام لا نقص فيه ولو كان فيه نقص لدل ذلك على نقصان مبدعه وصانعه فأما المخلوق الذي هو مركب من شيء فقد يحتمل أن يكون فيه نقص ويكون نقصه عارضاً من جهة ما تركب منه لا من جهة مركّبه وفاعله ، فلهذا صارت المبدعات من الاشياء العلوية معرّاة عن اعتراض الفساد فيها حالا فحالا بل تبقى على حالتها إلى أن يشاء الله تعالى أن يرفع العالم

والانسان إنسانان : أحدهما آدم الذي هو أبو البشر ويجري هو من سائر الناس مجرى البذر الذي منه انشيء غيره والباري تعالى قد تولى بنفسه إيجاده وتربيته وتعليمه كما نبه عليه بقوله تعالى : (ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي) . وقوله تعالى : (وعلم آدم الاسماء كلها)

والثاني بنوه وموجدهم أيضاً الباري تعالى ولكن جعل انشاءهم وتربيتهم وتعليمهم بوسائط جسمانية وروحانيـــة فالجسماني كالابوين والروحاني كالملائكة المدبّرات والمقسمات الذين يتولون إنشاءه وتربيته كماروي في الخبر: الولد يكون أربعين يوماً نطفة ثم يصير علقة ثم يصير مضغة ثم يبعث الله ملكاً فينفخ فيه الروح إلى غير ذلك من الاخبار. ولكون الابوين سبباً في وجود الولد عظم الله تعالى حقهما والزم بعد شكره شكرهما فقال : (اشكر لي ولوالديك) : ويسمى الولد ابناً وهو مشتق من بنيت البنية تنبيهاً على أنه جار للأب مجرى البناء للباني

الباب الثالث

في ذكر العناصر التي منها أوجد الانسان

ذكر الله تعالى العناصر التي خلق منها آدم عليه السلام ونبه على انـــه جعله انساناً في سبع درجات . وأشار إلى ذلك في مواضع مختلفة حسب ما اقتضته الحكمة فقال في موضع: خلقه من تراب إشارة إلى المبدأ الاول . وفي آخر من طين إشارة إلى الجمع بين التراب والماء . وفي آخر من حمأ مسنون إشارة إلى الطين المتغير بالهواء ادنى تغير . وفي آخر من طـــين لازب إشارة إلى الطين المستقر على حـــالة من الاعتدال يصلح لقبول الصورة. وفي آخر من صلصال من حمأ مسنون إشارة الى يبسه وسماع صلصلة منه وفي آخر من صلصال كالفخار . وهو الذي قد أصلح بأثر من النار فصار كالخزف وبهذه القوة النارية حصل في الإنسان أثر من الشيطنة وعلى هذا المعنى دل بقوله : (خلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق

الجان من مارج من نار) . فنبه على أن الإنسان فيه من القوة الشيطانية بقدر ما في الفخار من أثر النـــار وأن الشيطان ذاته من المارج الذي لا استقرار له . ثم نبه الله على تكميل الانسان بنفخ الروح فيه فقال: (اني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) فهذه سبع درجات نبـــه عليها كما ترى . ثم دل على تكميل نفسه بالعلوم والآداب بقوله تعالى : (وعلم آدم الاسماء كلها) ثم ذكر خلق بني آدم وعناصرهم التي أوجدها حالة بعد حالة فنبه على أنه جعلهم أناساً في سبع درجات حسب ما جعل آدم عليـــه السلام فقال تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقـــة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقـــاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) . وقوله تعالى : (ثم أنشأناه خلقاً آخر) أشار به إلى ما جعل له من قوة العقل والفكر والنطق فإن قيل فلم قال فكسونا العظام لحما ولم يقـــل فخلقنا منه لحما كما قال في الأول . قيل إشارة منه تعالى إلى لطيفة من صنعه وهو ان النطفة انتهت إلى صورة العظم ثم أنشأ الله اللحم إنشاء آخر لا من النطفة وأجراهـــا مجرى الكسوة التي قد يخلعها الإنسان ويجددها ولذلك إذا قطع من الحيوان لحم عاد ولم يكن كالعظم الذي لا يعود بعد قطعه . فإن قيل كيف حكم على جميع الناس أنه خلقهم من سلالة من طين والمخلوق منها هو آدم دون أولاده . قيل إن ذلك على وجهين : أحدهما أنه لما خلق آدم من سلالة من طين فأولاده الذين منه هم أيضاً منها . والثاني أن الانسان يتكون من النطفة ويتربى بدم الطمث (١) وهما يتكونان من الغذاء والغذاء يتكون

---

(١) الطمث الحيض

من الحيوان والحيوان يتكون من النبات والنبات من سلالة من طين فاذا الانسان على الحقيقة من سلالة من طين وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله : (إنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً) . وقوله : (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) وقوله : (خلقكم من تراب ثم من نطفة) . فجعله الله تعالى من تراب على هذا الوجه . وقال : (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) وفي آخر : (خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) وعني بالانسان ههنا آدم ولذلك قال : ثم جعل نسله : فاقتصر ههنا على النطفة دون المبدأ الاول الذي هو التراب . وإنما ذكر هذه المبادي متفرقة لحكمة اقتضت تخصيص ذكرها في موضعها الذي ذكرها فيه وليس شرح تخصيص ذكر كل واحد من ذلك في موضعه مما يليق بهذا الكتاب

الباب الرابع

في ذكر قوى الاشياء التي جمعت في الانسان

الانسان قد جمع فيه قوى العالم وأوجد بعد وجود الاشياء التي جمعت فيه وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله : (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) . وقول النبي ﷺ الذي تقدم ذكره . وقد جمع الله تعالى في الانسان قوى بسائط العالم ومركباته وروحانياته وجسمانياته ومبدعاته ومكوناته . فالانسان من حيث أنه بوساطة العالم حصل ومن أركانه وقواه أوجد هو العالم . ومن حيث أنه صغّر شكله وجمع فيه قواه كالمختصر من العالم فإنه المختصر من الكتاب هو الذي قلل لفظه واستوفي

معناه . والإنسان هكذا هو إذا اعتبر بالعالم . ومن حيث أنه جُعل من صفوة العالم ولبابه وخلاصته وثمرته فهو كالزبد من المخيض والدهن من السمسم فمامن شيء إلا والإنسان يشبهه من وجه فإنه كالأركان من حيث ما فيه من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة . وكالمعادن من حيث ما هو جسم . وكالنبات من حيث ما يتغذى ويتربى وكالبهيمة من حيث ما يحس ويتوهم ويتخيل ويلتذ ويتألم. وكالسبع من حيث ما يحرض (١) ويغضب . وكالشيطان من حيث ما يغوي ويضل : وكالملائكة من حيث ما يعرف الله تعالى ويعبده ويخلفه. وكاللوح المحفوظ من حيث قد جعله الله مجمع الحكم التي كتبها فيه على سبيل الاختصار . فقد ذكر بعض الحكماء في بدن الانسان أربعة آلاف حكمة وفي نفسه قريباً من ذلك . وكالقلم من حيث ما يثبت بكلامه صور الاشياء في قلوب الناس كما أن القلم يثبت الحكم في اللوح المحفوظ ، ولكون الانسان من قوى مختلفة قال الله تعالى : (انا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) أي مختلطة من قوى أشياء مختلفة . ولكون العالم والانسان متشابهين إذا اعتبرا، قيل الانسان عالم صغير والعالم انسان كبير ولذلك قال الله تعالى : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) . فأشار بالنفس الواحدة إلى ذات العالم. ولما كان كل مركب من أشياء مختلفة يحصل باجتماعهن معنى ليس بموجود فيهن على انفرادهن كالمركبات من الأدوية والاطعمة كذلك في نفس الانسان حصل معنى ليس في شيء من موجودات العالم وذلك المعنى هو ما يختص به من خصائصه التي بها تميز عن غيره من هيآت له كانتصاب القامة وعرض الظفر وانفعالات له كالضحك والحياء وأفعال

---

(١) حرض ككرم طال همه وسقمه

الباب الخامس

في تكوين الانسان شيئا فشيئا حتى يصير إنسانا كاملا

الانسان يكون أولا جماداً ميتا قال الله تعالى (وكنتم أمواتا فأحياكم) وذلك حيث كان ترابا وطينا وصلصالا ونحوها . ثم يصير نباتا ناميا كما قال الله تعالى (والله أنبتكم من الأرض نباتا) وذلك حيث ما كان نطفة وعلقة ومضغة ونحوها . ثم يصير حيوانا وذلك حيث مايتبع بطبعه بعض ما ينفعه ويحترز من بعض ما يضره . ثم يصير إنسانا مختصا بالأفعال الانسانية وقد نبه الله تعالى على ذلك في مواضع نحو قوله (يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة) الآية . وقوله (أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا) فأول ما يظهر فيه قوة النزاع الموجودة في النبات والحيوان ثم قوة تناول الموافق ودفع المخالف ثم الحس ثم التخيل ثم التصور ثم التفكر ثم العقل، فهو لم يصر إنساناً إلا بالفكر والعقل الذي به يميز بين الخير والشر والجميل والقبيح . وإلى العقل أشار الله تعالى بقوله (وصوركم فأحسن صوركم) فالانسان بعقله صار معدن العلم ومركز الحكمة . ووجود العقل فيه في ابتداء الامر بالقوة كوجود النار في الحجر المحتاج في أن يري (١) الى الاقتداح وكوجود النخل في النوى المحتاجة في ان تثمر الى غرس وسقي . وكوجود الماء تحت الارض المحتاجة

(١) من وري الزند إذا خرجت ناره

في الاستقاء منه الى حفره . ونفس الانسان واقعة بين قوتين: قوةالشهوة وقوة العقل . فبقوة الشهوة يحرص على تناول اللذات البدنـــية البهيمية كالغذاء والسفاد والتغالب وسائر اللذات العاجلة . وبقوة العقل يحرص على تناول العلوم والافعال الجميلة والأمور المحمودة العاقبة . والى هاتين القوتين أشار الله تعالى بقوله(انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفورا) وبقوله (وهديناه النجدين)

ولما كان من جبلة الانسان أن يتحرى ما فيه اللذة وكانت اللذات على ضربين : أحدهما محسوس كلذة المذوقات والملموساتوالمشمومات والمسموعات والمبصرات وهي من توابع الشهوة الحيوانية والثاني معقول كلذة العلم وتعاطي الخير وفعل الجميل . واللذات المحسوسة أغلب علينا لكونها أقدم وجوداً فينا لأنها توجـــد في الانسان قبل أن يولد وهي ضرورية في الوقت ولذلك قال الله تعالى (يحبون العـــاجلة ويذرون الآخرة) ولذلك يكره أكثر الناس ما يأمر به العقل ويميل الى ما يأمر به الهوى حتى قيل : العقل صديق مقطوع والهوى عدو متبوع . ولذلك قال النبي ﷺ : حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات . ولذلك يحتاج الانسان أن يقاد في بدء أمره الى مصالحه بضرب من القهر حتى قال ﷺ :يا عجباً لقوم يقادون الى الجنة بالسلاسل . فحق الانسان أن يجاهد هواه الى ان يقتحم العقبة فيتخلص حينئذ من أذاه

وللنفس نظران : نظر الى فوق نحو العقل ومنه تستمد المعارفوتميز بين المحاسن والقبائح فتعرف كيف تتحرى المحاسن وتتجنبالقبائح.ونظر الى تحت نحو الهوى وبه تنسى الحقائق وتألف الخسيسات بلالقاذورات والنفس متى كانت شريفة أدامت النظر الى فوق كما ذكرنا ولا تنظر الى

ما دونها الا عند الضرورة ولا تتناول اللذات البدنية الا بحسب ما يرسمه العقل المستمد من الشرع او اذا كانت دنية أكثرت الميل الى الشهوات البدنية فيحدث ذلك لها اذعاناً وانقياداً للشهوات فيستعبدها الهوى كما قال الله تعالى (أفرأيت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم) وانما اضله بعد ان اتخذ الهه هواه وجعله عبداً لأغراض دنيوية كما قال النبي ﷺ : تعس عبد الدرهم .. الخبر . ومن هذه العبودية استعاذ ابراهيم الخليل عليه السلام حيث قال (واجنُبني وبني ان نعبد الاصنام)

الباب السادس

في ظهور الانسان في شعار الموجودات وتخصيصه بقوة شيء فشيء منها

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

ذات الانسان من حيث ما اجتمع فيه قوى الموجودات صار وعاء معاني العالم وطينة صوره ومعدن آثاره ومجمع حقائقه وكأنه مركب من جمادات ونباتات وبهائم وسباع وشياطين وملائكة ولذلك قد يظهر في شعار كل واحد من ذلك فيجري تارة مجرى الجمادات في الكسل وقلة التحرك والانبعاث وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) وقد يظهر في شعار النباتات الحميدة أو الذميمة فيصير إما كالأترج (١) الذي يطيب حمله ونَوره(٢)

---

(١) الاترج : فاكهة معروفة الواحدة اترجه

(٢) النور : الزهر

وعوده وورقه أو كالنخل والكرم فيما يؤتي من النفع أو كالكشوث (١) في عدم الخير أو كالحنظل في خبث المذاق وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله (مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت (٢) من فوق الأرض ما لها من قرار) ويظهر تارة في شعار الحيوانات المحمودة والمذمومة فيصير اما كالنحل في كثرة منافعه وقلة مضاره وفي حسن سياسته قال الله تعالى (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون) أو كالطير المسمى بأبي الوفا أو كالخنزير في الشره أو كالذئب في العيث أو كالكلب في الحرص أو كالنمل في الجمع أو كالفار في السرقة أو كالثعلب في المراوغة أو كالقرد في المحاكاة أو كالحمار في البلادة أو كالثور في الفظاظة وعلى هذا النحو من المشابهات دل الله بقوله (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون) ويظهر تارة في شعار الشياطين فيغوي ويضل ويسول بالباطل في صورة الحق كما دل الله تعالى بقوله (شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وإنما يكون إنساناً إذا وضع كل واحد من هذه الأشياء في موضعه حسب ما يقتضيه العقل المرتضي المستبصر بنور الشرع

---

(١) الكشوث بفتح الكاف وضمها : نبت يتعلق بالاغصان لا عرق له ولا ورق ولا بسر ولا ظل ولا زهر وهو يفسد الثمار ويضر الاشجار

(٢) الجث القطع او انتزاع الشجر من اصله

الباب السابع

في ماهية الإنسان

ماهية كل شيء تحصل بصورته التي يتميز بهـا عن اغياره كصورة السكين والسيف والمنجل ونحوها ولما كان الإنسان جزئين بدن محسوس وروح معقول كما نبه الله تعالى عليه بقوله (إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجـدين) كان له بحسب كل واحد من الجزئين صورة فصورته المحسوسة البدنية انتصاب القامة وعرض الظفر وتعري البشرة عن الشعر والضحك وصورته المعقولة الروحـانية العقل والفكر والروية والنطق قالوا فالانسان هو الحيوان النـاطق ولم يعنوا بالناطق اللفظ المعبر به فقط بل عنوا به المعـاني المختصة بالانسان فعبروا عن كل ذلك بالنطق فقد يعبر عن جملة الشيء بأخص ما فيه أو بأشرفه أو بأوله كقولك سورة الرحمن وسورة يوسف وسورة لايلاف ونحو ذلك فالانسان يقال على ضربين عام وخاص فالعام أن يقال لكل منتصب القامة مختص بقوة الفكر واستفادة العلم والخاص أن يقال لمن عرف الحق فاعتقده والخير فعمله بحسب وسعه وهذا معنى يتفاضل فيه الناس ويتفاوتون فيه تفاوتاً بعيداً وبحسب تحصيله يستحق الانسانية وهي تعاطي الفعل المختص بالانسان فيقال فلان أكثر إنسانية . وكما يقـال الانسان على وجهين يقال له الحيوان الناطق على وجهين عام ويراد به من في قوة نوعه استفادة الحق والخير كقولك الانسان هو الكاتب دون الفرس والحمار أي هو الذي في قوته استفادة الكتابة. وخاص ويراد به من

حصل الحق فاعتقده والخير فعمله كما يقال زيد هو الكاتب دون عمرو أي هو المختص بعلم الكتابة. وكذا يقال له عبد الله على وجهين عام ويراد بـــه الحيوان المتعرض لارتسام أوامر الله ارتسم أو لم يرتسم وهو المشار اليه بقوله تعالى: (إن كل من في السموات والارض إلا آتي الرحمن عبدا) وخاص وهو المرتسم لاوامر الله تعالى كما قـــال سبحانه : (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان) وكذلك يقـــال له حي وسميع وبصير ومتكلم وعاقل كل ذلك على وجهين يقال عاماً وهو لمن له الحياة الحيوانية التي بها الحس والتخيل والنزوع والشهوة ولمن سمع الاصوات ولمن يدرك الالوان ولمن يُفهم الكافة بما يريده ولمن له القوة التي يتبعها التكليف والثاني يقال له خاصاً وهو لمن له الحياة التي هي العـــلم المقصود بقول الله تعالى : (لينذر من كان حياً) وله السمع الذي به يسمع حقائق المعقولات والبصيرة التي بها يدرك الاعتبارات واللسان الذي بـــه يورد التحقيقات وهي التي نفاها عن الجهلة الكفرة في قوله تعالى : (صم بكم عمي فهم لا يعقلون)؛

الباب الثامن

في كون الانسان مستصلحاً للدارين

الانسان من بين الموجودات مخلوق خلقة تصلح للدارين وذلك ان الله تعالى قد أوجد ثلاثة أنواع من الاحياء نوعاً لدار الدنيا وهي الحيوانات ونوعاً للدار الآخرة وهو الملأ الاعلى ونوعاً للدارين وهو الانسان فالانسان واسطة بين جوهرين وضيع وهو الحيوانات ورفيع وهو الملائكة فجمع فيه قوى

العالمين وجعله كالحيوانات في الشهوة البدنية والغذاء والتناسل والمهارشة والمنازعـــة وغير ذلك من أوصاف الحيوانات . وكالملائكة في العقل والعلم وعبادة الرب والصدق والوفـــاء ونحو ذلك من الاخلاق الشريفة ووجه الحكمة في ذلك أنه تعالى لما رشحه لعبادته وخلافته وعمارة أرضه وهيأه مع ذلك لمجاورته في جنته اقتضت الحكمة أن يجمع له القوتين فإنه لو خلق كالبهيمة معرى عن العقل لما صلح لعبادة الله تعالى وخلافته كما لم يصلح لذلك البهائم ولا لمجـــاورته ودخول جنته . ولو خلق كالملائكة معرى عن الحاجة البدنية لم يصلح لعمارة أرضه كما لم يصلح لذلك الملائكة حيث قال تعالى في جوابهم (إني أعلم ما لا تعلمون) فاقتضت الحكمة الإلهية أن تجمع له القوتان وفي اعتبار هذه الجملة تنبيه على ان الانسان دنيوي وأخروي وانه لم يخلق عبثاً كما نبه الله عليه بقوله (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون)

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الباب التاسع

في تمثيل ذات الانسان وتصويره

قد ذكر الحكماء لذات الانسان وقواها مثالا صوروها بها فيتمثل كل ما لا يدرك إلا بالعقل بتصور الحس ليقرب من الفهم فقالوا ذات الانسان لما كان عالماً صغيراً كما تقدم جرى مجرى بلد أحكم بناؤه وشيد بنيانه وحصن سوره وخطت شوارعه وقسمت محاله وعمرت بالسكان دوره وسلكت سبله واجريت أنهاره وفتحت أسواقه واستعملت صناعه

وجعل فيه ملك مدبّر وللملك وزير وصاحب بريد وأصحاب اخبار وخازن وترجمان وكاتب وفي البلد أخيار وأشرار . فصناعها هي القوى السبعة التي يقال لها الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والنامية والغاذية والمصورة والملك العقل ومنبعه من القلب . والوزير القوة المفكرة ومسكنها وسط الدماغ . وصاحب البريد القوة المتخيلة ومسكنها مقدم الدماغ . وأصحاب الأخبار الحواس الخمس ومسكنها الأعضاء الخمسة . والخازن القوة الحافظة ومسكنها خلف الدماغ . والترجمان القوة الناطقة وآلتها اللسان . والكاتب القوة الكاتبة وآلتها اليد وسكانها الاخيار والاشرار هي القوى التي منها الأخلاق الجميلة والأخلاق القبيحة وكما ان الوالي إذا تزكى وساس الناس بسياسة الله صار ظل الله في الأرض كما روي أن النبي ﷺ قال : السلطان ظل الله في الأرض ويجب على الكافة طاعته كما قال الله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) كذلك متى جعل العقل سائساً وجب على سائر قوى النفس أن تطيعه . وكما أن الله تعالى جعل الناس متفاوتين كما نبه الله تعالى عليه بقوله (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً) كذلك جعل قوى النفس متفاوتة وجعل من حق كل واحدة أن تكون داخلة في سلطان ما فوقها ومتأمرة على مادونها . فحق القوة الشهوانية أن تكون مؤتمرة للقوة الغضبية وحق القوة الغضبية أن تكون مؤتمرة للقوة العاقلة وحق القوة العاقلة أن تكون مستضيئة بنور الشرع ومؤتمرة لمراسمه حتى تصير هذه القوى متظاهرة غير متعادية كما قال الله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين) وكما لا ينفك أشرار العالم من أن يطلبوا في العالم الفساد ويعادوا الاخيار كما قال تعالى (وكذلك جعلنا في كل قرية

اكابر مجرميها ليمكروا فيها) وقال سبحانه (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن) كذلك في نفس الانسان قوى رديئة من الهوى والشهوة والحسد تطلب الفساد وتعادي العقل والفكر . وكما نبه انه يجب للوالي أن يتبع الحق ولا يصغي إلى الأشرار ولا يعتمدهم كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم) الآية .وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء) وقال (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهوائهم واحذرهم أن يفتنوك) كذلك يجب للعقل والفكر أن لا يعتمد القوى الذميمة .

وكما انه يجب للوالي أن يجاهد أعداء المسلمين كما قال تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) . كذلك يجب للعقل أن يعادي الهوى فإن الهوى من أعداء الله بدلالة قول النبي ﷺ : ما في الارض معبود أبغض إلى الله من الهوى ثم تلا أفرأيت من اتخذ إلهه هواه . وكما ان من استحوذ عليه الشيطان أنساه ذكر الله كذلك العقل إذا استحوذ عليه الهوى . وكما انـــه يجب للوالي ان يسالم أعاديه إذا لم يقو عليهم كما قال الله تعالى (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) وأن لا يركن إليهم وإن سالمهم كما قال الله تعالى (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) كذلك يجب للعقل ان يسالم الأشرار من قوى النفس إذا عجز عنها وان لا يركن إليها

وكما ان الوالي إذا احس بقوة احتاج إلى ان يعدل إلى نقض العهد وإظهار المعاداة كما قال الله تعالى (فـــاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجـــدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) كذلك حق العقل إذا قوي على قوى النفس ان لا يداهنها . وكما

ان شياطين الانس والجن يضعف كيدهم على من تحصن بالايمان واستعاذ بالله وتقوّى على من والاه كما قال تعالى (إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) كذلك يضعف كيد الهوى عن العقل إذا تقوى بالله واستعاذ به . فحق العقل ان يستعيذ مـــن الهوى والشره والحرص والامل وان يطهر ذاته منهـــا ومن سائر القوى الرديئة استعاذة ابراهيم صلوات الله عليه حيث قال (رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) فالقوى الرديئة والإرادات الرديئة في ذات الإنسان جارية مجرى أصنام قل ما ينفك الإنسان من عبادتها كما قال الله تعالى (ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) وذكروا مثلا آخر فقالوا : كل إنسان مع بدنه كوال في بلد قيل له طهر بلدك من النجاسات وأدب من يقبل التأديب من أهله ورض من يقبل الرياضة من حيوانه وسباعه . ومـــن عاث (١) فيه ولا يقبل التأديب والرياضة فاحبسه أو اقتله ولكن بالحق كما قال الله تعالى (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق) فـــان عجزت عن تطهير عرصته مـــن الأنجاس وعن تأديب طغاته ورياضة حيواناته وسباعه فلا تعجز عن صيانة نفسك عن التلطخ بنجاساته وعن الاحتراس من أن تفترسك سباعه وأن يسبيك طغاته حتى إذا لم تكن غالباً لم تكن مغلوباً . فصار الناس في ذلك بين ثلاثة أصناف : صنف لم يفعل ما أمر ولم يؤد حق الإيالة وتهاون فيما فوض إليه فجرح وأسر فصار عند نفسه مع كونه مجروحاً مأسوراً ملوماً مخذولا . وصنف فعل ما أمر فأدى حق الإيالة فصار عند ربه مأجوراً مشكورا . وصنف جد تارة وقصر تارة فجرح وجُرح وغلب وغلب فهو كما قال تعالى (خلطوا

(١) العبث الافساد

عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم)وقال بعضهم: الإنسان إذا اعتبر مع قوة التخيل وقوة الغضب وقوة الشهوة فمثله مثل من بلي في سفره بصحبة ثلاثة اضطر إليهم حتى لا يمكنه أن ينفصل منهم ويقضي سفره من دونهم كما قال الشاعر :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بـــد
فيا نكد الدنـــيا متى أنت نازح عـــن الحر حتى لا يقاربه ضد

فواحد أمامه هو له رقيب يحفظه وعين تكلأه لكنه ملق (١) باهت مموه يلفق الباطل تلفيقاً ويختلق الزور اختلاقاً فيخلط الكذب بالصدق والخطأ بالصواب . والثاني عن يمينه بطش زعر (٢) يحميه عن أعاديه لكنه كثيراً ما يغويه فيهيج هائجه فلا يفهمه النصح ولا يطأطئه الرفق كأنه نار في حطب أو سيل في صبب أو قرم مغتلم (٣) أو سبع ثاكل (٤) فيحتاج ان يسكنه دائمـــاً فيحتمي به ومنه فهو معه كما قيل : راكب الاسد يهابه الناس وهو في نفسه أهيب . والثالث عن يساره وهو الذي يأتيه بالمطعم والمشرب لكنه ارعن (٥) ملق قذر شبق (٦) كأنه خنزير اجيع فأرسل في جلة (٧) يأتيه احياناً بأطعمة خبيثة فيكرهه على تناولها فهو يحتاج ان يصابرهم حتى يقطع سفره فيبلغ ارضا مقدسة يشرق فيها النور ويشرب فيها الذئب والنعجة من حوض واحد فيأمن فيها بوائقهم ومن حيلته التي ترجى ان يسلم منهم بها ان يسلط هذا البطش الزعر على هذا الارعن الملق حتى يزبره زبراً (٨) وان يطغي غلو هـــذا الزعر الثائه

(١) الملق المعطي باللسان ما ليس في القلب (٢) شرس (٣) القرم البعير والمغتلم شديد الهياج (٤) الثكل فقدان الحبيب او الولد (٥) الرعونـــة الحمق (٦) الشبق الشديد الغلمة والشهوة (٧) الجلة بالفتح البعرة وتطلق على العذرة (٨) الزبر الزجر والانتهار

بخلابة هذا الارعن الملق وان لا يجنح إلى الباهت المتخرص حتى يؤتيه موثقاً من الله غليظا ثم يصدقه فيما ينهيه إليه فجعل الملق الباهت كناية عن الوهم والبطش الزعر عن الغضب والارعن الملق عـــن الشهوة وجعل الارض المقدسة عبارة عن دار السلم وذكر ان حيلته في ان يسلم منهم ان يدفع بعض هذه القوى ببعض دفع الشر بالشر .

الباب العاشر

في كون الانسان هو المقصود من العالم وإيجاد ما عداه لأجله

المقصود من العالم وإيجاده شيئاً بعد شيء هو أن يوجـــد الانسان فالغرض من الأركان أن يحصل منهـــا النبات ومن النبات أن تحصل الحيوانات ومن الحيوانات أن تحصل الاجسام البشرية ومن الأجسام البشرية أن يحصل منها الأرواح الناطقة ومن الأرواح الناطقة أن يحصل منها خلافة الله تعالى في أرضه فيتوصل بإيفاء حقها إلى النعيم الابدي كما دل الله تعالى عليه بقوله : (إني جاعل في الارض خليفة) . وجعل تعالى الانسان سلالة العـــالم وزبدته وهو المخصوص بالكرامة كما قال تعالى : (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقنـــاهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) . وجعل ما سواه كالمعونه له كما قال تعالى في معرض الامتنان : (هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعاً) فليس فضله بقوة الجسم فالفيل والبعير أقوى جسما منه ولا بطول العمر فالنسر والحية أطول عمراً منه ولا بشدة البطش فالاسد والنمر أشد منه

بطشاً ولا بحسن اللباس فالطاووس والدراج (١) أحسن منه لباساً ولا بالقوة على النكاح فالحمار والعصفور أقوى منه نكاحا ولا بكثرة الذهب والفضة فالمعادن والجبال أكثر منه ذهبا وفضة وما أحسن قول الشاعر

لولا العقول لكان أدنى ضيغم ادنى إلى شرف من الانسان
ولما تفاضلت النفوس ودبرت ايـــدي الكماة عواليَ المرّان

ولا بعنصره الموجود منه كما زعم إبليس حيث قال : (خلقتني من نار وخلقته من طين) . بل ذلك بما خصه الله تعالى به وهو المعنى الذي ضمنه فيه والامر الذي رشحه له وقد أشار اليه تعالى بقوله : (فإذاسويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين)وبقوله : (خلقت بيديّ) . والملائكة لمانبههم الله تعالى لفضل آدم تنبهوا فأذعنوا وسجدوا له كماأمروا وإبليس لما نظر إلى ظاهر آدم وبدئه وتعامى عما ذكر الله تعالى ولم يتأمل المعنى الذي ضمنه الله تعالى آدم والعاقبة التي جعلها له أبى واستكبر .وقد اقتدى به الكفار في رد الأنبياء حيث قالوا : (ما هـــذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم). وقالوا: (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق) . وقد نبه الله تعالى على أن الاعتبار بفضلهم ليس بظاهر أبدانهم وإنما ذلك لمعاني في نفوسهم يعمى عنها الكفار فقال عزمن قائل (وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون) . أي لا يعرفون ما فضلتهم به فمن وفق لفضل ما أعطي ولما رشح له وأعد ثم سعى في مثاله فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب

---

(١) الدراج بالضم والتشديد ضرب من الطير ذكراً كان او انثى .

الباب الحادي عشر

في الغرض الذي لاجله أوجد الانسان ومنازلهم

الغرض منه أن يعبدالله ويخلفه وينصره ويعمر أرضه كما نبه الله تعالى بآياته في مواضع مختلفة حسب ما اقتضت الحكمة ذكره وذلك قوله تعالى : (وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون) . وقوله : إني جاعل في الأرض خليفة . وقوله : ليستخلفنهم في الأرض . وقوله : ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب . وقوله : يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله . وقوله : واستعمركم فيها . وكل ذلك إشارة إلى توليتهم اموراً لم يستصلح لها إلا الإنسان كما نبه الله تعالى عليه بقوله للملائكة : (إني أعلم ما لا تعلمون) . وذلك ان الله تعالى ما كان موجداً لماهو موجده وفاعلالما هو فاعله إلا على أربعة أوجه

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الأول أفعال تولاها بذاته وهي الإبداع ومعنى الابداع هو إيجاد الشيء من العدم واليه الاشارة بقوله تعالى : (بديع السموات والأرض)

الثاني أفعال استعبدفيها ملائكته وسماه قوم التكوينات وذلك إخراج الشيء من النقص إلى الكمال إخراجاً غير محسوس فاعله وبذلك وصفهم الله تعالى بقوله : فالمدبرات أمراً . وهم ثلاثة أضرب ضرب اليهم القيام بالاجرام السماوية وقد قيل هم إسرافيل وميكائيل وجبرائيل ورضوان والمحتفون بالعرش الموصوفون بقوله تعالى : (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمدربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) . وقوله تعالى : (الذين يحملون العرش ومن حوله .. الآية) .

وضرب اليهم تدبير الأركان الهوائية كالملائكة الباعثة للرياح والمزجية للسحاب الموصوفين بقوله تعالى : والمرسلات عرفاً . وقوله عز وجل والنازعات غرقا . وضرب اليهم تدبير الأرض كالموصوفين بقوله تعالى (له معقبات من بين يديـــه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) . وكمن وصفه النبي ﷺ في صفة الجنين انه يبعث ملكا فينفخ فيه الروح وكالحفيظ والرقيب والعتيد وكمن وصفهم الله بقوله : (ألن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين)

والثالث أفعال سخر الله تعالى لها الأركان وموجودات العالم كالاحراق والاذابة للنار والترطيب للماء وفي الجملة ما قـــد سخر تعالى له شيئا فشيئا من الجمادات والناميات وغير ذلك ونبه عليه بقوله تعالى : (وسخر لكم الشمس والقمر) . وغير ذلك من الآيات المذكورة

والرابع الصناعات والمهن المحسوسة التي استعبد الانسان فيها واستخلفه وهي الأشياء التي يحتاج صناعة أكثرها إلى ستة أشياء إلى عنصر تعمل منه وإلى مكان وإلى زمان وإلى حركة وإلى أعضاء وإلى آلة وهذا الضرب خص الانسان به ولم يستصلح له الملائكة وجعـــل لكل من الملك مقاما معلوما كما نبه عليه تعالى بقوله : (وما منا إلا له مقام معلوم). وكذلك جعل لكل نوع من الناس مقاما معلوما كما نبه عليه بقوله : (قل كل يعمل على شاكلته) وقوله : (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) . وقول النبي ﷺ: كلٌ ميسرٌ لما خُلق له. ولكن عامة الملائكة لم يعصوا الله فيما أمرهم كما وصفهم تعالى بقوله : (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) . والناس فيما أمروا به وكلفوه بين مطيع وعاص فهم على القول المجمل ثلاثة أضرب : ضرب أخلوا بأمره وانسلخوا عما خلقوا لأجله

واتبعوا خطوات الشيطان وعبدوا الطاغوت . وضرب وقفوا (١) بغاية جهدهم حيث ما وقفوا كالموصوفين بقوله تعالى : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا) وضرب ترددوا بين الطريقين كما قال الله تعالى « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا » فمن رجح حسناته على سيئاته فموعود بالإحسان اليـــه . وعلى الأنواع الثلاثة دل الله بقوله : « وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ماأصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ماأصحاب المشئمة والسابقون السابقون أولئك المقربون » وعلى هذا اقسم الله تعالى في آخر السورة فقال : « فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لـــك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزُلٌ من حميم وتصلية جحيم) . وكثير من الناس يعصون الله ولا يأتمرون له فقيضهم الله تعالى بغير إرادة منهم للسعي في نصرته من حيث لا يشعرون كفرعون في أخـــذ موسى وتربيته وكجمعه السحرة ليكون سببا في إيمانهم . واخوة يوسف في فعلهم ما أفضى به إلى ملك مصر وتمكنه مما تمكن منه ويكون مثلهم في ذلك كما قيل :

قصدت مساتي فاجتلبت مسرتي
وقديحسن الإنسان من حيث لايدري

وقال آخر :

فعل الجميل ولم يكن من قصده فقبلته وقرنته بذنوبه
ولرب فعل جاءني من فاعل فحمدته وذممت من يأتي بـــه

فيكون فعله محموداً وفاعله مذموما كماقيل :

رب أمر أتاك لا تحمد ال فعال وتحمد الأفعالا

---

(١) في نسخة وقفوا

وقد أوجد الله تعالى كل ما في العالم للإنسان كما نبه عليه بقوله تعالى « جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » . وقال تعالى : « وسخر لكم ما في السموات وما في الارض ... الآية » . وقال عز وجل : « وسخر لكم ما في الارض » . وقوله تعالى (هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار) الآية وأباح جميعها لهم كما نبه الله تعالى عليه بقوله (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) فللإنسان أن ينتفع بكل ما في العالم على وجهه اما في غذائه أو في دوائه أو في ملابسه ومشموماته ومركوباته وزينته والالتذاذ بصورته أو رؤيته والاعتبار به وباستفادة علم منه والاقتداء بفعله فيما يستحسن منه والاجتناب عنه فيما يستقبح منه فقد نبه الله تعالى على منافع جميع الموجودات واطلع الخلائق عليها اما بألسنة الأنبياء عليهم السلام أو بالهام الأولياء رضي الله عنهم وكما أن حق الإنسان أن يعرف منافع الحيوانات في ذواتها فينتفع بها في المطاعم والملابس والأدوية فحقه أن يعرف أخلاقها وأفعالها فينتفع بها في اجتناء ما يستحسن واجتناب ما يستقبح منها . فقد أحسن من قال : تعلمت من كل شيء أحسن ما فيه حتى من الكلب حمايته على أهله . ومن الغراب بكوره في حاجته . وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في وصف النحل فقال (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات) الآية . فنبه على أن الإنسان حقه أن يقتدي بالنحل في مراعاته لوحي الله عز وجل فكما أنها لا تتخطى وحي الله في تحري المصالح طبعاً

كذلك يجب على الإنسان أن لا يتخطى وحي الله اختياراً

الباب الثاني عشر

في تفاوت الناس واختلافهم

الأشياء كلها متساوية غير متفاوتة من حيث انها مصنوعة بالحكمة وعلى ذلك نبه الله تعالى بقوله (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) . ومختلفة من حيث أن كل نوع يختص بفائدة وكل نوع وإن اختلف فمامن شيء أكثر اختلافاً من الناس كما قال الله تعالى (وقد خلقكم أطوارا) . وقال تعالى (ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) وقال سبحانه وتعالى (أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) وقال سبحانه (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم) وقال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) الآية . وقال تعالى (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم) وقال سبحانه : ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع إلى قوله ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) والحكمة المقتضية لذلك هو ان الانسان لما كان غير مكفي بتفرده حتى لو ان إنساناً حصل وحده لامتنع أو تعذر بقاؤه أدنى مدة فإن اول ما يحتاج الانسان إليه ما يواريه وما يغذوه (١)

---

(١) يقال غذوت الصبي باللبن من باب غذا اي ربيته ولا يقال غذيته بالياء مخففاً ويقال غذيته مشدداً

وليس يجد ما يواريه مصنوعاً ولا ما يغذوه مطبوخاً كما يكون لكثير من الحيوانات بل هو مضطر إلى إصلاحها واصلاح ذلك يحوجه إلى آلات غير مفروغ منها والانسان الواحد لا توصل له الى اعداد جميع ما يحتاج اليه ليعيش العيشة الحميدة فلم يكن بد الناس من تشارك وتعاون فجعل لكل قوم صنعة وهيئة مفارقة للصنعة الأخرى ليقتسموا الصناعات بينهم فيتولى كل منهم صنفاً من الصناعات فيتعاطاه باهتزاز كما قال الله تعالى (فتقطعوا امرهم بينهم زبراً كل حزب بمـــا لديهم فرحون) فاقتضت الحكمة ان تختلف جثثهم وقواهم وهممهم فيكون كل ميسر لما خلق له . وقال تعالى (قل كل يعمل على شاكلته) فتكون معايشهم مقتسمة بينهم كما نبه الله عليه بالآيات المتقدمة . وقال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين الا مـــن رحم ربك) والاختلاف الحاصل بيّن . فالنـــاس اذا اعتبر اختلاف اغراضهم وهممهم فهم في صناعاتهم في حكم المسخرين وان كانوا في الظاهر مختارين . وقد أشار النبي ﷺ الى ما يتعلق من المصلحة بتباينهم واختلاف طبقاتهم فقال : لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا

الباب الثالث عشر

في سبب تفاوت الناس

اسباب ذلك سبعة اشياء الاول اختلاف الأمزجة وتفاوت الطينة واختلاف الخلقة كما اشير اليه فيما روي ان الله تعالى لما اراد خلق آدم

عليه السلام امر ان يؤخذ من كل ارض قبضة فجاء بنو آدم على قدر طينتها الأحمر والابيض والاسود والسهل والحزن والطيب والخبيث والى نحو هذا أشار الله تعالى بقوله (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا) وقال تعالى (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء) والثاني اختلاف أحوال الوالدين في الصلاح والفساد وذلك إن الإنسان قد يرث من أبويه آثار ما هما عليه من جميل السيرة والخلق وقبيحها كما يرث مشابهتها في خلقها ولهذا قال الله تعالى (وكان أبوهما صالحا) وعلى نحوه روي أنه قال التوراة : إني إذا رضيت باركت وإن بركتي لتبلغ البطن السابع وإذ سخطت لعنت وإن لعنتي لتبلغ البطن السابع تنبيهاً على أن الخير والشر الذي يكسبه الإنسان ويتخلق به يبقى أثره موروثاً إلى البطن السابع . والثالث اختلاف ما تتكون منه النطفة التي يكون منها الولد ودم الطمث الذي يتربى به الولد فذلك له تأثير بحسب طيب ما تكونا منه وخبثه ولهذا قال ﷺ تخيروا لنطفكم . وقال : الناكح غارس فلينظر أحدكم أين يضع غرسه . وقال : إياكم وخضراء الدمن قيل وما خضراء الدمن قال المرأة الحسناء في المنبت السوء . والرابع اختلاف ما يتفقد به من الرضاع ومن طيب المطعم الذي يتربى به ولتأثير الرضاع يقول العرب لمن تصفه بالفضل : لله دره . والخامس اختلاف أحوالهم في تأديبهم وتلقينهم وتطبيعهم وتعويدهم العادات الحسنة والقبيحة فحق الولد على الوالدين أن يؤخذ بالآداب الشرعية واخطار الحق بباله وتعويده فعل الخير كما قال النبي ﷺ: مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم لعشر . ويجب أن يصان عن مجالسة الارذياء فإنه في حال صباه كالشمع يتشكل بكل شكل يشكل به وان يحسن في عينه المدح والكرامة ويقبح عنده الذم

والمهانةويبغض إليه الحرص على المآكل والمشارب ويعوّد الاقتصاد في تناولها ومخالفة الشهوة ومجانبة ذوي السخف ويؤخذ بقلة النوم في النهار فهو يشيب ويورث الكسل ويعود التأني في أفعاله وأقواله ويمنع من مفاخرة الاقران ومن الضرب والشتم والعبث والاستكثار من الذهب والفضة ويعود صلة الرحم وحسن تأدية فروض الشرع . قال بعض الحكماء : من سعادة الإنسان أن يتفق له في صباه من يعوده تعاطي الشريعة حتى إذابلغ الحلم وعرف وجوبها فوجدهامطابقة لما تعودهقويت بصيرته ونفذت في تعاطيها عزيمته . والسادس اختلاف من يتخصص به ويخالطه فيأخذ طريقته فيما يتمذهب به (عن المرء لا تسأل وابصر قرينه) والسابع اختلاف اجتهاده في تزكية نفسه بالعلم والعمل حين استقلاله بنفسه . والفاضل التام الفضيلة من اجتمعت له هذه الاسباب المسعدة وهو أن يكونطيب الطينة معتدل الامزجة جارياً في أصلاب آباءصالحين ذوي أمانة واستقامة متكوناً من نطفة طيبة ومن دم طمث طيب على مقتضى الشرع ومرتضعاً بدر طيب وماخوذاً في صغره من قبل مربيه بالآداب الصالحة وبالصيانة عن مصاحبة الأشرار ومتخصصاً بعد بلوغه بمذهب حق ومجهداً نفسه في تعرف الحق مسارعاً إلى الخير فمن وفق في هذه الأشياءتنجع فيهالخيرات من جميع الجهات كما قال الله تعالى (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) ويكون جديراً أن يعدممن وصفه الله تعالى بقوله (وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيار) والرذل التام الرذيلة هو من يكون بعكس هذا في الأمور التي ذكرناها . واعلم ان من طابت أحواله انتفع بكل ما سمعه وشاهده إن خيراً وإن شراً ومن خبثت أحواله استضر بكل ما سمعه وشاهده وعلى ذلك دل الله تعالى بقوله (والبلد الطيب

يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا) فالخبيث من الارض وان طاب بذره وعذب ماؤه لاينبت الا خبيثاً والطيب من الارض وان كدر بذره وملح ماؤه لا ينبت الا طيباً ولذلك قال سبحانه وتعالى في كتابه (تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل) وقال في صفة كتابه (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى)

الباب الرابع عشر

في بيان الشجرة النبوية وفضلها على جوهر سائر البرية

اقتضت الحكمة ان تكون الشجرة النبوية صنفاً ونوعاً واحداً واقعاً بين الإنسان وبين الملك ومشاركاً لكل واحد منهما على وجه فإنهم كالملائكة في اطلاعهم على ملكوت السماوات والأرض وكالبشر في أحوال المطعم والمشرب . ومثله في كونه واقعاً بين نوعين مثل المرجان فإنه حجر يشبه الأشجار بتشذب (١) اغصانه وكالنخل فإنه شجر شبيه بالحيوان في كونه محتاجاً إلى التلقيح وبطلانه إذا قطع رأسه. وجعل الله النبوة في ولد ابراهيم ومن قبله في نوح كما نبه عليه بقوله (ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب . وقال تعالى (ذرية بعضها من بعض). فهم عليهم السلام وإن كانوا من حيث الصورة كالبشر فهم من حيث الأرواح كالملائك قد أيدوا بقوة روحانيــة وخصوا بها كما قال الله تعالى في عيسى

(١) أي بتفرق

عليه السلام (وأيدناه بروح القدس) وقال في محمد ﷺ (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبـــين) وتخصيصهم بهذا الروح ليمكنهم أن يقبلوا من الملائكة لما بينهم من المناسبة بتلك الأرواح ويلقون إلى الناس لما بينهم من المناسبة البشرية لذلك قال سبحانه (ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون) . تنبيهاً على أن ليس في قوة عامة البشر الذين لم يخصوا بذلك الروح ان يقبلوا إلا من البشر . ولما عمي الكفار عن إدراك هذه المنزلة وعما للأنبياء من الفضيلة أنكروا نبوة الأنبياء كما قال الله تعالى (قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فاتونا بسلطان مبين) فالأنبياء صلوات الله عليهم بالإضافة إلى سائر الناس كالإنسان بالإضافة إلى الحيوانات وكالقلب بالإضافة إلى سائر الجوارح وأيضا فمنزلة الأنبياء من أممهم بمنزلة الشمس من القمر ومنزلة علمهم من علوم أممهم بمنزلة ضوء الشمس من نور القمر كما قال الله تعالى (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً) . فكما أن نور القمر مقتبس من ضوء الشمس وهو قاصر عنها كذلك منزلة الأمم من أنبيائهم ومنزلة علمهم من علومهم . وكما لا يحصل النور للقمر إلا بوساطة الشمس كذلك لاتحصل علوم الناس وتزكية نفوسهم إلا بوساطة الانبياء وعلى هذا دل الله تعالى بقوله (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم) فالله تعالى وتبارك يزكي الأنبياء بوساطة الملك ويزكي من يشاء من الناس بوساطة الانبياء كالطابع الذي جعل له كتابة ثم بوساطته يثبت في الشموع المختلفة شكل تلك الكتابة

الباب الخامس عشر

في هداية الأشياء إلى مصالحها

كل ما أوجـــده الله سبحانه فإنه هداه لما فيه مصلحته كما نبه عليه بقوله تعالى (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) . لكن هدايته للجمادات بالتسخير فقط كالاشياء الارضية التي إذا تركت تنحو نحو السفل وكالنار التي تنحو إلى العلو . وهدايته للحيوانات إلى أفعال تتعاطاها بالتسخير والالهام كالنحل فيما يتعاطى من السياسة واتخاذ البيوت المسدسة ومن عمل العسل . وكالسرفة (١) فيما تبنيه من الابنية . وكالعنكبوت في نسجه . وهدايته للملائكة بالتسخير والالهام وبداهة العقل وما جعل لهامن العلوم الضرورية فأما الانسان فهدايته له تعالى بكل ذلك وبالفكر . وذلك أنه بالتسخير بنفسه وكثير من حركاته وبالالهام هدايته طفلا للارتضاع بالثدي وطلب الغذاء والتشكي من الآلام بالبكاء وببديهة العقل يعرف مبادي العلوم وبالفكر يتوسل إلى استنباط المجهول بالمعلوم فهو إن خلق عاريا من المعارف التي جعلها الله تعالى للحيوانات بالالهام ومن المدبس والاسلحة التي جعلها لها بالتسخير فقد جعل للانسان قوة التعلم بالعقل والفكر وتحصيل الملابس والاسلحة والآلات المختلفة ووكله إلى نفسه من الاستفادة ومكنه من ذلك، وذلك فضيلة لانقيصة ورفعة لاضعة فإنه بإعطائه العلم والعقل واليد العاملة فقد أعطاه كل شيء ولو أعطي كل شيء حسب ما أعطي البهائم

---

(١) السرفة بالضم دويبة تتخذ بيتاً من دقاق الميدان فتدخله وتموت ومنه المثـــل (اصنع من سرفـــة) وسرفت السرفة الشجرة اكلت ورقها ومنه السرف الذي هو الحد في النفقة

شيئا فشيئا لكان قد منع كل شي لان بعضه كان يمنعه عن استعمال البعض وإلى تمكن الانسان من تحصيل ما يريده أشار الله تعالى بقوله : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون » وقد ظن قوم ان الله تعالى خلق الناس من بين الحيوان خلقا منقوصا إذ لم يعطوا سلاحا يدفعون به عن أنفسهم كما أعطى كثيراً من الحيوان أسلحة كالانياب والمخالب إذ لم يكفهم لباسهم كما كفى الحيوان بل قد أحوجهم إلى تطهير البدن وقد أغناها عنه قالوا ولذلك قال الله تعالى «وخلق الانسان ضعيفا» . وليس كذلك والصحيح عند المخلصين ان الانسان وإن كان ضعيفا بالاضافة الى الباري تعالى وإلى الملأ الاعلى فليس يقصر عن الحيوان جميعه من جهة ما ظنوه فإن الله تعالى بحكمته البارعة أعطى كل واحد من الحيوان سلاحا بقدر ما علم من مصلحته فبعض جعل له آلة الهرب كالعدو والبعض جعل له رمحا يدفع به كالقرون للبقر والغنم وبعض دبوسا كالحافر للفرس والحمار وبعض نشابا كالشوك للقنفذ، وجعل لكل لباسا بحسب كفايته وألهم كلا منها صنعة يتعاطاها بطبعه وجعل للإنسان بدل ذلك الفكر والتمييز الذي يمكنه ان يتخذ به كل آلة وكل ملبس على قدر حاجته اليه ويتناوله متى شاء ويضعه متى أحب ويستبدل به كيفما أراد والحيوانات ليس لها أن تضع أسلحتها متى ما استغنت عنها ولا أن تستبدل بها فهـذا دليل على تمام الانسان ونقصان الحيوانات والانسان بالفكر والروية يقهر الحيوانات التي هي أقوي منه لأنه يهيء بفكرته لكل منها آلة يصطادها بها فإذاً العقل الذي أعطاه ليحصل به كل مايحتاج اليه أعلى وأشرف، فإنه مرآة إذا جلاهـا اضطلع بها على ملكوت السموات والأرض

الباب السادس عشر

في سعادة الانسان ونزوعه اليها

قال بعض الحكماء : جعل الله لكل شيء كمالا ينساق اليه طبعاً وقد هداه إلى التخصيص به تسخيراً كما نبه الله عليه بقوله تعالى (أعطى كل شيء خلقه ثم هدى). وللإنسان سعادات أبيحت له وهي النعم المذكورة في قوله تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها) وجميع النعم والسعادات على القول المجمل ضربان ضرب دائم لايبيد ولايحول وهو النعم الأخروية وضرب يبيد ويحول وهو النعم الدنيوية . والنعم الدنيوية متى لم توصلنا إلى تلك السعادات فهي كسراب بقيعة وغرور وفتنة وعذاب كما وصفه الله تعالى في كتابه « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ..الآية» وما أصدق ما قال الشاعر :

إنما الدنيا كرؤيا أفرحت ... من رآها ساعة ثم انقضت

فصـــل

ما أحد إلا وهو فازع إلى السعادة يطلبها بجهد ولكن كثيراً مايخطىء فيظن ماليس بسعادة في ذاته انها سعادة فيغتر بهـــا فيكون كالموصوف بقول الله تعالى « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا » . وبقوله تعالى « أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء » وقال الشاعر :

كل يحاول حيلة يرجو بها ... دفع المضرة واجتلاب المنفعه

والمرء يغلط في تصرف حاله ... فلربما اختار العناء على الدعه

فصـــل

النعم النبوية إنما تكون نعمة وسعادة متى تُنوولت على ما يجب وكما يجب ويجري بها على الوجه الذي لأجله خُلق وذلك أن الله جعل الدنيا عارية ليتناول منها قدر ما يتوصل به إلى النعم الدائمة والسعادة الحقيقية . وشرع لنا في كل منها حُكماً بيَّن فيه كيف يجب أن يتناول ويتصرف فيها لكن صار الناس في تناولها فريقين فريق يتناولوه على الوجه الذي جعله الله له فانتفعوا به فصار ذلك لهم نعمة وسعادة وهم الموصوفون بقوله تعالى « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » .وقوله عز وجل :(للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين) .وقوله تعالى : «والذين هاجروا في الله من بعدما ظُلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة» . فهؤلاء حيوا بها حياة طيبة كما قال تعالى « فلنحيينه حياة طيبة » . وفريق يتناولوها لا على الوجه الذي جعلها الله لهم فركنوا اليها فصار ذلك لهم نقمة وشقاوة فتعذبوا بها عاجلا وآجلا وهم الموصوفون بقوله تعالى « إنمـــا يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون »

فصـــل

والسعادات الأخروية ليس لنا تصور كنهها مادمنا في دار الدنيا ولذلك قال تعالى « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين » . وكما قال النبي ﷺ عن ربه تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . والسبب عن قصورنا في تصورها شيئان أحدهما أن الإنسان لا يمكن أن يعرف حقيقة الشيء وتصوره حتى يدركه بنفسه وإذا لم يدركه ووصف له يجري مجرى صبي توصف له لذة الجماع

فلا يمكن أن يتصور حقيقته حتى يبلغ فيباشره بنفسه وكالأكمه توصف له المرآة ، وحالنا في اللذة الاخروية هكذا فإنا لا نتصورها على الحقيقة إلا إذا طالعناها فإذا طالعناها شغلنا الفرح والتلذذ بها عن كل ما دونها كما قال تعالى « أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون » والثاني أن لكل قوة من قوى النفس وجزء من أجزاء البدن لذة تختص بها لا يشاركها فيها غيرها فلذة العين في النظر إلى ما تستحسنه ولذة السمع في الاستماع إلى ما يستطيبه ولذة اللمس في لمس ما يستلذه ولذة الوهم في تصور ما يؤمله ولذة الخيال في تخيل ما يستحسن تصوره ولذة الفكر أمر مجهول عنده يتعرفه وكل واحدمن هذه القوى والأجزاء إذاعرض لها آفةتعوقها عن شهوتهاوعن إدراك لذتها يكون كالمريض الذي لا يشتهي الماء وكان به ظمأ وإذا تناوله لم يجد له لذة كما قال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به المـــاء الزلالا

وإذا كان كذلك فاللذات الأخروية هي لذات لا تدرك إلا بالعقل المحض وعقول أكثر من في هـــذه الدار موهة معوقة عن إدراك حقائق اللذات الأخروية فلا تشعر بها كالخدر (١) لآفـــة عرضت له فلا يحس بالسبب المؤلم . وكالمريض الذي لا يحس بالجوع وإن كان جوعه يؤذيه ولا يشتهي الطعام إن كان فقدالطعام يضنيه بل إنما يحس بالجوع إذا زال السبب المؤلم . وأيضاً فعقول أكثرنا ناقصة وجارية مجرى عقولالصبيان الذين لم يبلغوا مبلغ رجال قد عرفوا حقائق الأشياء فكما أن الصبيان ما داموا صغاراً لا يحسون باللذات والآلام التي تعرض للرجال فيتعللون بالأباطيل والأضاليل كذلك من كان في عقله صبياً لم يطلع على الحقائق

(١) خدر العضو استرخى فلا يطيق الحركة

وبالاعتبار بهم قال الله تعالى « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب» .وقال تعالى : «فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » ولما أراد الله تعالى أن يقرّب معرفة تلك اللذات من أفهام الكافة شبهها ومثلها لهم بأنواع ما تدركها حواسهم فقال تعالى « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى » . ليبين للكافة طيبها بما عرفوه من طيب المطاعم وقال : « مثل الجنة التي وعد المتقون » . ولم يقل الجنة لينبه الخاصة على ان ذلك تصوير وتمثيل فالإنسان وإن اجتهد ما اجتهد أن يطلع على تلك السعادة فلا سبيل له اليها إلا على أحد وجهين أحدهما ان يفارق هذا الهيكل ويخلف وراءه هذا المنزل فيطلع على ذلك كما قال الله تعالى « يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون » والثاني أن يزيل قبل مفارقة الهيكل الامراض النفسانية المشار اليها بقوله تعالى « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » وارجاسها المشار اليها بقوله تعالى « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً» فيطلع من وراء ستر رقيق على بعض ما أعد له كما حكي عن حارثة حيث قال للنبي ﷺ عزفت (١) نفسي من الدنيا فكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً واطلع على أهل الجنة يتزاورون وعلى أهل النار يتعاوَون فقال له النبي ﷺ عرفتَ فالزم . وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام: لو كُشف الغطاء ما ازددت يقيناً .

---

(١) عزف عن الشيء انصرف عنه

الباب السابع عشر

في حال الإنسان في دنياه وما يحتاج أن يتزود منها

الإنسان مسافر ومبدأ سفره من حيث ماأشار اليه تعالى بقوله (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) : وحيث قال في صفة نبيه (وإذأخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بـلى) . ومنتهى سفره دار السلام ودار القرار . له في سفره أربعة منازل ظهر ابيه وبطن امه وظهر الأرض والموقف وله حالتان: حالة هو فيها مستودع وهو ما دام في هذه المنازل ، وحالة هو فيها مستقر وهو إذا حصل في دار القرار وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله « وهو الذي أنشأكم من نفس واحـدة فمستقر ومستودع) . والمنزل الذي فيه يحتاج إلى تزود ظهر الأرض فالإنسان في كَدح وكبَد(١) مالم ينته إلى دار القرار كما قال الله تعالى (يأأيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه) وقال تعالى (لقد خلقنا الإنسان في كبد) . وهو مجبول على طلب الراحة لكن الناس على طلبها في ضربين ضرب عموا عن الآخرة وقالوا (ما هي إلاحياتنا الدنيا نموت ونحيا) أو فعلوا فعل من قال ذلك وإن لم يقولوا قولهم فطلبوا الراحـة من حيث لا راحة وهم كالموصوفين بقوله عز وجـل « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءحتى إذا جاءه لم يجده شيئاً» . وقوله «إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط بـه نبات الارض .. »

---

(١) الكدح العمل والكد . والكبد الشدة وكابد الامر قاسى شدته

الآية فإنهم طلبوا من الدنيا ما ليس في طبيعتها ولاموجوداً فيها ولها .وما أحسن قول الشاعر :

اريدمن زمني ذا أن يباغني ما ليس يبلغه في نفسه الزمن

وقال آخر :

مضى قبلناقوم رجوا أن يقوّموا بلا تعب عيشاً فلم يتقوم

وضرب عرفوا الدنيا والآخرة وعلموا أن الدنيا كما قال الله تعالى : (ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين وان الدار الآخرة لهي الحيوان) وعلموا ان فيها يستقر الإنسان ويطمئن كما قال الله تعالى (يا أيتها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية) وانه يحتاج إلى أن يسافر اليها كما قال عليه السلام : سافروا تغنموا . فاحتملوا المشقة علما أن كل تعب يؤديهم إلى راحة فهو راحةفسعدوا كما قال الله تعالى (فأما الذين سعدوا ففي الجنة) .

وقد جعل للإنسان حرثين مفيدين لزادين أحدهما روحاني كالمعارف والحكم والعبادات والاخلاق الحميدة وثمرته الحياة الأبدية والغنى الدائم والاستكثار منه محمود ولا يكاد يطلبه إلا من قد عرفه وعرف منفعته . والثاني جثماني كالمال والاثاث وفي الجملة ما قد نبه الله تعالى عليه بقوله: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والانعام والحرث) وثمرته أن تحصل به الحياةالدنيوية الفانية ويسترجع من الإنسان إذا فارق دنياه ولا ينتفع منه بشيء إلا بقدر ما استعان به في الوصول إلى الزاد الأخروي كما نبه الله تعالى عليه بقوله (وما الحيساة الدنيا في الآخرة إلا متاع) . ولا يولع بالركون اليها إلا من جهل حقائقها ومنافعها . والاستكثار منه ليس

بمذموم مالم يكن مثبطاً لصاحبه عن مقصده وكان متناولا على الوجـــه الذي يجب وكما يجب ومجعولا إلى الوجه الذي ينتفع به في مقصده لكن تناوله على هذا الوجه والاستكثار منه لا يتأتى الا اذا كان السلطان عادلا والامور جارية على أذلالها (١) فيحفظ الناس معاملاتهم عـــلى مقتضى الشرع ثم يكون صاحبه اذا تناوله كما قال تعالى (ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) فإذا لم يكن الامر كما ذكرنا من الاستقامة فليس الا الاقتصاد والاقتصار والتبلغ بما أمكن حتى ينقضي السفر . والموفق في الدنيا اذا رأى نفسه قاصرة عن الجمع بين الامرين اهتم بما يبقى وأقلّ العناية بما يفنى وآثر الآخرة على الدنيا فلا يلتفت الى الدنيا الا بقدر مايتبلغ به الى الآخرة مراعياً فيه حكم الشرع ومحافظاً لقول الله عز وجل (يا أيها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) وكما قال النبي ﷺ: ماأنا والدنيا انما مثلي فيها مثل راكب سار في يوم صائف فرفعت له شجرة فنزل فقام في ظلها ساعة ثم راح وتركها . وقد نبه الله تعالى على حـــال من يريد ان يتجرد ويتخلص من حبالة (٢) الدنيا على سبيل المثل بقوله (ان الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني الا من اغترف غرفة بيده) ومحبة الدنيا ـ كما قال النبي ﷺ ـ رأس كل خطيئة . وقد روي عنه ﷺ : من سكن قلبه حب الدنيا بلي بثلاثة، شغل لايبلغ مداه، وفقر لايبلغ غناه، وأمل لا يبلغ منتهاه . وقال ﷺ : من كانت الدنيا أكبر همه فرق الله تعالى عليه همته وجعل فقره بين عينيه ولم

---

(١) يقال امور الله جارية على أذلالها أي مجاريها جمع ذل بالكسر

(٢) الحبالة ككتابة المصيدة

يأته من الدنيا الا ما كتب له ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله تعالى شمله وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة. وهذا معنى قوله عزوجل (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب) ومعرفة ذلك والوصول اليه لا يمكن الا أن يستضيء العقل بنور الشرع معتمداً على من له الخلق والامر.

الباب الثامن عشر

في تظاهر العقل والشرع وافتقار أحدهما الى الآخر

اعلم ان العقل لن يهتدي الا بالشرع والشرع لا يتبين الا بالعقل فالعقل كالاس والشرع كالبناء ولن يغني أس ما لم يكن بناء ولن يثبت بناء ما لم يكن أس: وأيضاً فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر ولهذا قال الله تعالى (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه) وأيضاً فالعقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمده فإن لم يكن زيت لم يحصل السراج وما لم يكن سراج لم يضيء الزيت قال الله تعالى (الله نور السماوات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء)

والله هو الهادي . وأيضاً فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل وهما متعاضدان بل متحدان ولكون الشرع عقلا من خارج سلب الله تعالى اسم العقل من الكافر في غير موضع من القرآن نحو قوله (صم بكم عمي فهم لا يعقلون) . ولكون العقل شرعاً من داخل قال في وصف العقل (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) فسمى العقل دينا . ولكونهما متحدين قال (نور على نور) أي نور الشرع ونور العقل ثم قال (يهدي الله لنوره من يشاء) فجعلهما نوراً واحداً فالشرع إذا فُقد العقل عجز عن أكثر الامور عجز العين عند فقد الشعاع .

واعلم أن العقل بنفسه قليل الغناء (١) لا يكاد يتوصل إلا إلى معرفة كليات الأشياء دون جزئياتها نحو أن يعلم جملة حسن اعتقاد الحق وقول الصدق وتعاطي الجميل وحسن استعمال العدالة وملازمة العفة ونحو ذلك من غير أن يعرف ذلك في شيء شيء والشرع يعرف كليات الأشياء ويبين ما الذي يجب أن يعتقد في شيء شيء وما الذي هو معدلة في شيء شيء ولا يعرفنا العقل مثلا إن لحم الخنزير والدم والخمر محرم وانه يجب أن يتحامى من تناول الطعام في وقت معلوم وان لا تنكح ذوات المحارم وأن لا تجامع المرأة في حال الحيض فإن أشباه ذلك لا سبيل اليها إلا بالشرع فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة والأفعال المستقيمة والدال على مصالح الدنيا والآخرة ومن عدل عنه فقد ضل سواء السبيل . ولاجل ان لا سبيل للعقل إلى معرفة ذلك قال الله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقد قال تعالى (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت

---

(١) الغناء بالفتح والمد النفع

الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) . وإلى العقل والشرع أشار بالفضل والرحمة بقوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا) . وعنى بالقليل المصطفين الأخيار

الباب التاسع عشر

في فضيلة الشرع

أعلم أن أحكام الشرع من وجه دواءٌ ومعجون مفروغ منه تولى إيجاده من له الخلق والأمر . وهو دواء مفيد للحياة الأبدية والسلامة الدائمة كما قال الله تعالى (أوَمن كان ميتاً فأحييناه) وقال تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) فجعل ذلك روحاً لإفادة الحياة الأبدية . وقال الله تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء). وقوله (شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) . ومن وجه هو ماء مطهر مزيل للأنجاس والأرجاس النفسية كما قال الله تعالى في وصفه للقرآن (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً) وكذلك قال الله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) ومن وجه هو نور وسراج مزيل للظلمة والحيرة والجهالة قال الله تعالى « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » . وقوله تعالى: (الله نور السموات والارض)

. ومن وجه وسيلة إلى الله عز وجل كما قال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة) وقال فيمن مدحهم : (يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته) وقوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً) . وقوله تعالى : « فليرتقوا في الاسباب » : ومن وجه هو الطريق المستقيم كما قال الله تعالى « وإن هذا صراطي مستقيما » .

فصـــل

ذكر بعض الحكماء أن الارض المقدسة المذكورة في قوله تعالى « ياقوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لـــكم ولا ترتدوا على أدباركم » . هي في الدنيا ، الشريعة وفي الآخرة الجنة لانها هي التي إذا دخلها الإنسان لا يرتد على دُبرُه ونال السعادة الكبرى بلا مثنوية(١) فامابيت المقدس في الارض فإن من يدخله فبنفس دخوله إياه لا يستحق مثوبة بل المثوبة تستحق بأمور أخر يكون دخوله المكان الذي هو بيت المقدس آخرها بعد ان يكون دخوله على وجه مخصوص وفي حال مخصوص. قال: وعلى هـــذا الحرم المذكور في قوله تعالى : « أولم يروا انا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون » وسأل جعفر بن محمد الصادق بعض الفقهاء عن هذه الآية فقال أريد بها مكة فقال : واعجباً وأي أرض أكثر تخطفاً لمن حولها من مكة . ويدل على ما قال قول الله تعالى بعد ذلك « وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون » وكذلك قوله تعالى « وإذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجـــداً نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين » . والسفر

---

(١) يقال هبة ليس فيها مثنوية ولا ثنيا أي استثناء

الموعود بالغنيمة بقول النبي ﷺ، سافروا تغنموا، هو السفر إلى هذه الدار وكذلك الفرار المدعو اليه من جهة المثـــل بقوله: ففروا إلى الله . وكذا الحج الاكبر الذي دعـــا الناس اليه بقوله (وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الا كبر) وقوله تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) وكذا الجهاد الاعظم في قوله تعالى (وجاهدوا في الله حق جهاده) . والهجرة الكبرى في قولـــه تعالى (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها).

الباب العشرون

في ان من لم يتخصص بالشرع وعبادة الله فليس بإنسان

لما كان الإنسان إنما يصير إنساناً بالعقل ولو توهمنا العقل مرتفعاً عنه لخرج عن كونه إنساناً ولم يكن إذا تخطينا الشبح الماثل إلا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة والعقل لن يكمل بل لايكون عقلا إلا بعد اهتدائه بالشرع كما تقدم ولذلك نفى العقل عن الكفار لما تعروا عن الهداية بالشرع في غير موضع من كتابه والاهتداء بالشرع هو عبادة الله تعالى فالإنسان إذاً في الحقيقة هو الذي يعبد الله ولذلك خُلق كما قال الله تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون. ماأريد منهم من رزق وماأريد أن يطعمون) وكما قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) فكل ماأوجد لفعل فمتى لم يوجـــد منه ذلك الفعل كان في حكم المعدوم ولذلك كثيراً ما يسلب عن الشيء اسمه إذا وجد فعله ناقصاً كقولهم للفرس الرديء

ليس هذا بفرس وللإنسان ليس هذا بإنسان . ويقال فلان لا عين لـه ولا أذن له إذا بطل فعل عينه وأذنه وإن كان شبحها باقياً وعلى هـذا قال تعالى (صم بكم عمي) فيمن لم ينتفع بهذه الأعضاء فالإنسان يحصل له من الإنسانية بقدر ما يحصل له من العبادة التي لأجلها خلق فمن قام بالعبادة حق القيام فقد استكمل الإنسانية ومن رفضها فقد انسلخ من الانسانية فصار حيواناً أو دون الحيوان كما قال الله تعالى في وصف الكفار (إن هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا) وقال (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) فلم يرض أن يجعلهم أنعاماً ودواب حتى جعلهم أضل منها وجعلهم من أشرارها وأخرج كلامهم عن جملة البيان فقال تعالى (وما كان صلاتهم عند البيت إلامكاء وتصدية) تنبيهاً على أنهم كالطيور التي تمكو وتصدي(١) ونبه تعـالى بنكتة لطيفة على أن الإنسان لا يكون إنساناً إلا بالدين ولا ذا بيان إلا بقدرته على الاتيان بالحقائق الدينية فقال تعالى (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان) فابتدأ بتعليم القرآن ثم بخلق الانسان ثم بتعليم البيان ولم يدخل الواو فيما بينهما وكان الوجه عـلى متعارف الناس أن يقول خلق الإنسان وعلمه البيان وعلمه القرآن فإن إيجاد الإنسان بحسب نظرنا مقدم على تعليم البيان وتعليم البيان مقدم على تعليم القرآن لكن لما لم يعد الانسان إنساناً ما لم يتخصص بالقرآن ابتدأ بالقرآن ثم قال خلق الإنسان تنبيهاً على أن بتعليم القرآن جعله إنساناً على الحقيقة ثم قال علمه البيان تنبيهاً على ان البيان الحقيقي المختص بالانسان يحصل بعد معرفـة القرآن فنبه بهذا الترتيب المخصوص وترك حرف العطف منه وجعل كل جملة بدلا مما قبلها لا عطفاً،

---

(١) مكا الطائر صفر . وصدي صفق

على أن الانسان ما لم يكن عارفاً برسوم العبادة ومتخصصاً بها لا يكون إنساناً وان كلامه ما لم يكن على مقتضى الشرع لا يكون بياناً . فإن قيل فعلى ما ذكرته لا يصح أن يقال للكافر إنسان وقد سماهم الله بذلك في عامة القرآن . قيل انا لم نقل انا لانسمي الكافر إنساناً على تعارف الكافة بل قلنا قضية العقل والشرع تقتضي أن لا يسمى به إلا مجازاً ما لم يوجد منه العقل المختص به ثم ان سمي به على سبيل تعارف العامة فليس ذلك بمنكر فكثير من الاسماء يستعمل على وجه فيبين الشرع ان ليس استعماله على مااستعملوه كقولهم الغني فإنهم استعملوه في كثرة المال وبين الشرع ان الغنى ليس هو كثرة المـــال قال عليه الصلاة والسلام ليس الغنى بكثرة المـــال وإنما الغنى غنى النفس . فيشير إلى ان الغنى ليس هو كثرة المال وقال تعالى (ومن كان غنياً فليستعفف) أي كثير الاعراض (١) فاستعمله عـــلى ما هو متعارف . وجملة الأمر ان اسم الشيء إذا أطلقه الحكيم على سبيل المدح يتناول الأشرف منه كقوله تعالى (وانه لذكر لك ولقومك) وقوله تعالى (ورفعنا لك ذكرك) وإن كان الذكر قد يقال للمحمود والمذموم . وعلى هذا يمدح كل شيء بلفظ نوعـــه فيقال فلان هو إنسان وهذا السيف سيف ولهذا قيل الانسان المطلق هو نبي كل زمان وقد قال عليه الصلاة والسلام : الناس اثنان عالم ومتعلم وماعداهما همج (٢) . وقال بعض العلماء : قول من قال الانسان هو الحي الناطق

---

(١) العرض بوزن الفلس المتاع وجمعه عروض ولا يجمع اعراض إلا على لغة من فتح الوسط

(٢) يقال للرعاع الحمقى إنما هم همج واصله الذباب الصغير يسقط على وجه الغنم وغيرها

الميت صحيح وليس معناه ماتوهمه كثير من الناس من انه من الحياة الحيوانية والموت الحيواني والنطق الذي هو في الانسان بالقوة ، وإنما أريد بالحي من كان له الحياة المذكورة في قوله تعالى (لينذر من كان حيا) وبالنطق نبيا المذكور بقوله (علمه البيان) وبالميت من جعل قوته الشهوانية والغضبية مقهورتين على مقتضى الشريعة فيكون حينئذ ميتا بالارادة حيا بالطبيعة كما قيل : مت بالارادة تحيَ بالطبيعة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : من أمات نفسه في الدنيا فقد أحياها في الآخرة

الباب الحادي والعشرون

فيما يتعلق بالشرع من الأفعال

للانسان ضربان من الاحوال لا ينفك منهما ضرب لا يلحقه فيه محمدة ولا مذمة ولا في جنسه تكليف وذلك شيئان أحدهما أحوال ضرورية لا يمكنه ان يتفصى (١) منها كنبض العرق والتنفس وما يجري مجراها من الاحوال الضرورية . والآخر ما يقع من الانسان على سبيل السهو والخطأ وإن كان جنسه مقدوراً له وهو المذكور في قول النبي ﷺ: رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه . وضرب تلحقه فيه المحمدة والمذمة وفي جنسه التكليف وذلك ثلاثة أشياء احدها الافعال المختصة بالجوارح كالقيام والقعود والركوب والمشي والنظر وكل ما يحتاج إلى استعمال الاعضاء فيه. والثاني حفظ عوارض النفس كالشهوة والخوف واللذة والفرح والغضب والشوق والرحمة والغيرة وما أشبه ذلك. والثالث

(١) تفصى الانسان من الشهرة تخلص

ما يختص بالتمييز والعلم . وكل واحد من هذه الثلاثة اما ان يحمد عليه الانسان و يذم . فحمده ان تكون افعاله جميلة وعوارض نفسهمستقيمة وقلبه ذكيا حتى يعتقد الحق ويقوى على معرفته إذا ورد عليه . والمذمة تلحقه إن كانت على اضداد ذلك. والعبادات بهذه الاشياء الثلاثة تختص ولله تعالى في كل فعل يتحراه الانسان عبادة سواء كان الفعل واجبا او ندبا او مباحا وتكون تلك العبادة مبينة اما ببديهة العقل او بالكتاب او بلسان النبي او بإجماع الامة أو بالاعتبارات والاقيسة المبنية عـــلى هذه الاصول بل ما من حكم إلا وكتاب الله ينطوي عليه كما قال الله تعالى : (ما فرطنا في الكتاب من شيء) عرفه مـــن عرفه وجهله من جهله : وما من مباح إلا وإذا تعاطاه الانسان على ما يقتضيه حكم الله تعالى كان الانسان في تعاطيه عابداً لله مستحقا لثوابه كما قال النبي ﷺ لسعدإنك لتؤجر في كل شيء حتى اللقمة تضعها في في امرأتك . ومخاطبته لسعد بذلك لما عرف منه انه يراعي في افعاله حكم الله تعالى . وعلى هذا الوجه قال : ما من مسلم غرس غرسا لم يأكل منه شيئا الا كان له صدقـــة . ومراعاة امر الله في جميع الأمور دقيقها وجليلها مستحب للكافةوواجب على النبي ﷺ وعلى كل من تقرب منزلته من منزلته لقول الله تعالى : (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك)

الباب الثاني والعشرون

في تحقيق العبادة

العبادة فعل اختياري مناف للشهوات البدنية تصدر عن نية يراد بها التقرب إلى الله تعالى طاعة للشريعة. فقولنا فعل اختياري يخرج منه الفعل التسخيري والقهري ويدخل فيه الترك الذي هو على سبيل الاختيار فان الترك ضربان ضرب على سبيل الاختيار وهو فعل . وضرب هو العدم المطلق لا اختيار معه بل هو عدم الاختيار وليس بفعل . وبقولنا مناف للشهوات البدنية يخرج منه ما ليس بطاعة وأما الافعال المباحة كالاكل والشرب ومجامعة المرأة فليس بعبادة من حيث انها شهوه ولكنها قد تكون عبادة إذا تحرى بها حكم الشريعة وإنما قيل تصدر عن نية يراد بها التقرب إلى الله تعالى لانها إن خلت عن نية أوصدرت عن نية لم يقصد بها التقرب إلى الله تعالى بل أريد بها مراءاة لم تكن أيضاً عبادة وإنما قيل طاعة للشريعة لان من أنشأ من نفسه فعلا ليس بسائغ في الشريعة لم يكن عبادة ، وإن قصد به التقرب إلى الله تعالى فالعبادة إذاً فعل يجمع هذه الاوصاف كلها

الباب الثالث والعشرون

في أنواع العبادة من العلم والعمل

العبادة ضربان علم وعمل وحقها أن يتلازما لان العلم كالأس والعمل كالبناء وكما لا يغني أس ما لم يكن بنـــاء ولا يثبت بناء ما لم يكن أس كذلك لا يغني علم بغير عمل ولا عمل بغير علم ولذلك قال الله تعالى : « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » . والعلم أشرفهما لكن لا يغني بغير عمل ولشرفه قال رجل للنبي ﷺ ايما الاعمال أفضل يارسول الله فقال العلم فأعاد عليه السؤال فقال العلم فقال الرجل في الثالثة أسألك عن العمل لا عن العلم فقال عليه السلام عمل قليل مع العلم خير من عمل كثير مع الجهل. وقال عليه السلام طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة فالعلم ضربان نظري وعملي فالنظري ما اذا علم كفى ولم يحتج فيه بعده إلى عمل كمعرفة وحدانية الله تعالى ومعرفة ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومعرفة السموات وما أشبه ذلك. والعملي ما اذا علم لم يغن حتى يعمل به كمعرفة الصلاة والزكاة والجهاد والصوم والحج وبر الوالدين. والأعمال ثلاثة اضرب منها مايختص بالقلب ومنها مايختص بالبدن ومنها مايشارك فيه البدن القلب والعلم أيضاً إذا نظر اليه وهو مكتسب فاكتسابه عمل وإذا نظر اليه وقد اكتسب وتصور في القلب خرج في تلك الحال عن أن يكون عملا . ومن وجه آخر ضربان واجب وندب فالواجب يقال له العدل والندب يقال له الإحسان وهما المذكوران في قول الله تعالى : (إن الله يأمر بالعـــدل والإحسان) فالفرض والعدل تحري الإنسان لما إذا عمله اثيب وإذا تركه

عوقب والندب والإحسان تحري الإنسان لما إذا عمله أثيب وإذا تركه لم يعاقب والإنصاف من العدل والتفضل من البر والإحسان فالإنصاف هو مقابلة الخير من الخير والشر من الشر بمـــا يوازيه والتفضل والبر مقابلة الخير بأكثر منه والشر بأقل منه . فالإحسان والتفضل احتياط في العدالة والإنصاف ليؤمن به من وقوع خلل فيه وذلك انك إذا زدت في إعطاء ما عليك ونقصت في أخذ ما لك فقـــد احتطت وأخذت بالحزم كدفع زيادة زكاء إلى الفقير وترك ما أحل لك أن تتناول من مال اليتيم . فالعدالة إن كانت جميلة فالتفضل أحسن منها ولذلك قال تعالى فيمن استوفى حقه فتحرى العدالة (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) وقال سبحانه بعده (وان تعفوا أقرب للتقوى) وقال عز وجل « ولا تنسوا الفضل بينكم » إشارة إلى أن الإحسان حسن والتفضل أحسن وقال عز وجل «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» فالإنسان إنما يكون محسناً متفضلا بعد أن يكون عادلا منصفاً . فأما من ترك ما يلزمه ثم تحرى ما لا يلزمه فإنـــه لا يقال له متفضل ولا يجوز تعاطي التفضل إلا لمن كان مستوفياً وموفياً لنفسه فأما الحاكم المستوفي والموفي لغيره فليس له إلا تحري العدالة والنَّصفة (١)

فصـــل

العلوم من حيث الكيفية ضربان تصور وتصديق فالتصور هو أن يعرف الإنسان معنى الشيء صحّ عنده ذلك بدلالة أو لم يصح كمن عرف الصلاة وشرائطها وان لم تثبت صحتها عنده بدلالة والتصديق هو أن يتصور الشيء ويثبت عنده بدلالة تقتضي صحته

---

(١) النصفة محركة الإنصاف

والتصديق على ثلاثةأضرب اما بغلبة الظن وهو ان يكون عليه دلالة وقد يعترضها شبه توهنها أو تبطلها قال الله تعالى : إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذاهم مبصرون . «واما بعلم اليقين وهو ان يصير بحيث يعلم ويعلم انه يعلم ولا تعترضه شبه توهنه كالعلم مثلا بأن ثلاثة وثلاثة ستة وانه لا يصح أن يكون أكثر من ذلك أو أقل قال الله تعالى « إنما المؤمنون الذين آمنو بالله ورسوله ثم لم يرتابوا » . واما بعين اليقين وهو أن يرى بعقله الشيء ويعانيه ببصيرته في حال اليقظة والنوم وقد نبه الله تعالى على هذه الوجوه بقوله « كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين» . فأما التصورات المجردة فالعامة الذين قال الله تعالى فيهم « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه » وأما غلبة الظن فللعامة الذين مدحهم الله بقوله : (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) وأما علم اليقين فللخاصة. وأما عين اليقين ففي الدنيا للأنبيـــاء ولبعض الصديقين . وإلى نحوه أشار النبي ﷺ بقوله تنام عيني ولا ينام قلبي . وبقوله : اني أرى من خلفي كما أرى من قدامي . قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً . وقال بعض الحكماء : علم اليقين يحصل للعقل بالفكر والذكر فإن العقل بفكره أي ببحثه يدرك المعارف وبذكره يستحضرها إذا نسيها وغفـــل واشتغل عنها وبذهنه ينظر اليها دائماً كما ننظر نحن إلى محسوس غير غائب عن أبصارنا بلاحاجة إلى بحث وطلب وتفكر وتذكر وكذلك قيل الإنسان يعقل فينظر إلى الحق بالفكر والملائكة دائما ينظرون اليه بالذهن من غير حاجة إلى تفكر وطلب

فصـــل

للإنسان في استفادة العلم وإفادته ثلاثة أحوال : حال استفادة فقط وحال استفادةممن فوقه وإفادة لمن دونه وحال إفادةفقط وقل من يستحق أن يوجد مفيداً غير مستفيد ففوق كل ذي علم عليم إلى أن ينتهي الأمر إلى علام الغيوب فقد نبه الله تعالى على الحاجة الى الاستفادة بما حكاه من قول موسي عليه السلام لصاحبه « هل اتبعك على أن تعلمن مما عُلمت رشدا » ونبه بما ذكر في قصة سليمان عليه السلام عن الهدهد بقوله : « احطت بما لم تحط به » . ان الكبير قد يفتقر إلى الصغير في بعض العلوم فإذاً الإنسان ما دام حياً يجب أن لا يخرج من كونه مستفيداً ومفيداً كما قال النبي ﷺ الناس عالم ومتعلم وما سواهما همج

الباب الرابع والعشرون

في أن الغرض من العبادة تطهير النفس واجتلاب صحتها

لم يكلف الله الناس عبادته لينتفع هو تعالى بها انتفاع المولى باستعباد عبيده واستخدام خدمه فإن الله غني عن العالمين : ولا ليؤدبهم فقد قال تعالى (يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) . بل كلفهم ليزيل أنجاسهم وأمراضهم النفسية فبذلك يمكنهم أن يحصّلوا حياة أبدية وسلامة باقية سرمدية فإن من ولديكون ميتاً بالإضافة إلى أصحاب الدار الآخرة وفاقداً للعين التي بها يعرفهم والسمع الذي به يسمع تحاورهم واللسان الذي به يخاطبونه ويخاطبهم والعقل الذي به يعقلهم فليس تلكم الحياة والعين والسمع

ماللإنسان في الحياة الدنيا . وكيف يكون كذلك وقد نفى الله ذلك عن الكفار وجعلهم أمواتاً وصماً وبكماً وعمياً فإن الانسان له قوة على تحصيل تلك الأمور في ابتداء أمره وان أهمل نفسه فاتت عنه تلك القوة فلا يمكنه بعد قبول ذلك كالفحم اذا صار رماداً فلا يقبل بعد ذلك ناراً فمن استمر في كفره وفسقه وتمادى فيه صار اما ميتاً أو مريضاً أو أصم لا يقبل الشفاء ولذلك قال الله تعالى فيمن ثكل هذه القوة (انك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم) وقال تعالى « صم بكم عمي فهم لا يعقلون » وقال تعالى « في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت » . وقال تعالى : « انما المشركون نجس » . وقال تعالى في المؤمنين « لينذر من كان حياً » وقال فيهم « أولي الأيدي والأبصار » فمن استفاد الحياة والصحة والطهارة قبل أن تبطل عنه هذه القوى أعني قبول ذلك فصار حياً سميعاً بصيراً طاهراً وحصّل زاداً كما أمره الله تعالى بقوله « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » . واهتدى بالدليل الموصوف بقوله تعالى « وانك لتهدي الى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض الا إلى الله تصير الأمور » . وائتمر له تعالى بقوله « سابقوا الى مغفرة من ربكم » واقتدى بالموصوفين بقوله سبحانه « يسارعون في الخيرات » . فجدير أن يفلح فيحصل هذه السعادة كما قال الله تعالى « لعلكم تفلحون »

الباب الخامس والعشرون

في بيان الامراض والانجاس التي لا يمكن إزالتها إلا بالشرع

كما ان في بدن الانسان عوارض وأموراً موجودة عند الولادة أو توجد حالا فحالا بحكمة تقتضي ذلك وهي تعد نجاسات لا بد من اماطتها كلها أو إماطة فضولاتها وذلك كالسلى(١)والسرة والقلفةوالعقيقة الموجودة في الصبي عند الولادة وكالأوساخ والقمل والظفر وشعر العانة وشعر الابط كذلك في نفس الانسان عوارض هي نجاسات وامراض نفسانية يلزم إماطتها كالجهل والشره والعجلة والشح والظلم . ويدل على كون ذلك مخلوقاً فيه وأمره بإماطته وإماطة فضلاته ما ذكر الله تعالىفي مواضع من كتابه بقوله : « خلق الانسان من عجل » فذكر انه مخلوق منه كما ترى . ثم امره ان ينحيه عن نفسه وان لا يستعين به فقال : (سأريكم آياتي فلا تستعجلون) وقوله تعالى (انه كان ظلوماً جهولا) ثم أمره بالعلم والعدل في غير موضع من كتابه . وقوله تعالى (وأحضرت الانفس الشح) ثم قال : (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) فأمره باتقاء الشح مع إحضاره إياه. وقوله تعالى (إنالانسان خلقهلوعا اذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا) ووصفه بالكفوروالقتور في قوله (وكان الانسان كفورا) وقوله تعالى (قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتورا) فأدخل عليه كان، تنبيهاً على ان ذلكفيه غريزي موجود قبل، لاهو شيء طارىءعليه

---

(١) السلى على وزن الحصى الذي يكون فيه الولد

وقوله تعالى (وكان الانسان أكثر شيء جدلا) ثم نهى عن أكثر الجدال فالإنسان يحتاج أن يستعمل هذه القوى في الدنيا كما يجب وفي وقت ما يجب وبقدر ما يجب وأن يميط فضولاتها قبل خروجه من الدنيا حسب ما وردت به الشريعة فإنه متى لم يتطهر من النجاسة ولم يزل أمراض نفسه لم يجد سبيلا إلى نعيم الآخرة بل ولا إلى طيب الحياة الدنيا وذلك ان من تطهر تجلى عن قلبه الغشاوة فيعلم الحق حقاً والباطل باطلا فلا يشغله إلا ما يعنيه ولا يتناول إلا ما يعنيه فيحيي حياة طيبة كما قال تعالى (فلنحيينه حياة طيبة) ولا تصير قنياته في الدنيا وبالا عليه وعذاباً كما قال الله تعالى في الكفار (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) ويصير قلبه إذا تطهر مقر السكينة والأرواح الطيبة كما وصف الله تعالى المؤمنين بقوله (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) وعرف الطريق التي بها التوصل إلى الجنة المأوى ومصاحبة الملأ الأعلى في مقعد صدق عند مليك مقتدر فيسارع في الخيرات ويسابق إلى مغفرة من ربه. ومتى بقيت نجاسته وتزايدت صار قلبه مقر الشبه والآثام كما قال الله تعالى (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم) ولا يجد سبيلا إلى سعادة الدار الآخرة كما قال الله تعالى (أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم كلا انا خلقناهم مما يعملون) فنبه على انه لا يصلح لجنته من لم تطهر ذاته عن أشياء هي مخلوقة فيها وعلى هذا دل قوله تعالى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) فحق الإنسان أن يراعي هذه القوى فيصلحها ويستعملها على الوجه الذي يجب وكما يجب ليكون كمن وصفه الله تعالى بقوله (الذين تتوفاهم الملائكة

طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) وقد يقع للانسان شبهة في أمر هذه النجاسات فيقول أترى ان ذلك من عند غير الله فإن كان من غيره فمن اين يوجده ومن أين منبعه وإن كان منه فما المعنى في أن أوجده في الانسان ثم امره بأن يزيله فيقال ما من شيء أوجده الله أو أمكن من إيجاده إلا وفيه حكمة ومنفعة وإن لم يعرف ذلك البشر لكن من الأشياء ما نفعه في وقت مخصوص او إذا كان على قدر مخصوص ثم إذا استغني عنه أو زاد على قدر ما يحتاج إليه يجب أن يزال وذلك إذ تؤمل ظاهر إذ من المعلوم ان السلا والسرة يحتاج إليها لصيانة الولد في وقت ثم يستغنى عنها فيكون ابقاؤهما بعد نجاسة والشعر والظفر يحتاج إليهما إذا كانا على حد واذا زادا يجب اماطتهما

الباب السادس والعشرون

في القوى التي يجب ازالة امراضها وانجاسها والمعاني التي تحصل منها

ازالة النجاسة واجتلاب الطهارة المذكورة في قوله تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) واكتساب الصحة واماطة المرض المذكور في قوله تعالى (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) يكون بإصلاح القوى الثلاثة التي هي دواعي الإنسان في متصرفاته وهي قوة الشهوة وقوة الحمية وقوة الفكر فبإصلاح قوة الشهوة تحصل العفة فيحترز بها من الشره واماتة الشهوة ويتحرى المصلحة في المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح وطلب الراحة وغير ذلك من اللذات

الحسية وبإصلاح قوة الحمية تحصل الشجاعة فيحترز من الجبن والتهور والحسد ويتحرى الاقتصاد في الخوف والغضب والانفة وغير ذلك . وبإصلاح قوة الفكر تحصل الحكمة حتى يحترز من البله والجربزة (١) ويتحرى الاقتصاد في تدبير الأمور الدنيوية . وليس نعني بالحكمة ههنا العلوم النظرية وانما نعني بها الحكمة العملية التي يتحرى بها المصالح الدنيوية وبإصلاح هذه القوى يحصل في الإنسان قوة العدالة فيقتدي بالله تعالى في سياسة نفسه وسياسة غيره فنفس الانسان معادية له كما قال تعالى (ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي) وقال النبي ﷺ أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك فمن أدبها أو قمعها أمن ظلمها والى هذا أشار الله تعالى بقوله (ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما) أي لا يخاف ان تظلمه نفسه الشهوية فالأعمال الصالحة حصن منها لقول الله تعالى (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الباب السابع والعشرون

في كون الإنسان مفطورا على اصلاح النفس

الإنسان مفطور في اصل الخلقة على أن يصلح افعاله واخلاقه وتمييزه وعلى ان يفسدها وميسر له أن يسلك طريق الخير والشر وان كان منهم من هو بالجملة الى احدهما أميل . وعلى تمكنه من السبيلين دل الله بقوله

(١) الجربز بالضم الخب الخبيث معرب كربز والمصدر الجربزة . والخب بالفتح والكسر الرجل الخداع

(انا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا) وقوله تعـالى (وهديناه النجدين)أي عرفناه الطريقين وكما انه مفطور على اكتساب الامرين في ابتدائه مفطور على انه اذا تعاطى احدهما إن خيراً وإن شراً الفه فإذا الفه تعوده واذا تعوده تطبع به واذا تطبع به صار له طبعاً وملكة فيصير فيه بحيث لو اراد ان يتركه لم يمكنه كما قيل :

« وتأبى الطباع على الناقل »

ويكون مثله كمثل شجر نبت فاعوج سهل في الابتداء تثقيفه وتسويته بخيط يشد فيه او بخشب يفرش بجنبه فيسدد بـه . ثم اذا غلظ واشتد مستويا امن ان يعوج بل لا يمكن تعويجه وإن ترك حتى يعوج فيصلب على عوجه لم يمكن بعده تثقيفه كما قال الشاعر :

يقوّم بالثقاف العود لدنـاً ولا يتقوم العود الصليب

وعلى هذا الوجه قال الله تعالى (ان الحسنات يذهبن السيئات) وقال تعـالى (ويدرأون بالحسنة السيئة) وقد توهم قوم ان لا اثر للتأديب والتهذيب فإن الناس مجبولون على طبائع لا سبيل الى تغييرها فمنهم اخيار بالطبع ومنهم اشرار بالطبع واستدلوا بقول الله تعالى (قل كل يعمل على شاكلته) وقوله تعالى (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) فنبه الله بهذا المعنى على ان كل انسان على حال لا سبيل الى تغييرها وقول النبي ﷺ كل ميسر لما خلق له . وقوله عليه السلام : فرغ ربكم من الخلق والخَلق والرزق والأجل . وبقوله تعـالى (ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين) وقوله (انا اخلصناهم بخـالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار) وقوله (ولقداخترناهم على علم على العالمين) والناس وان تفاوتوا في اصل الخلقة فما احد الا

وله قوة على اكتساب قدر ما من الفضيلة ولولا ذلك لبطلت فائـدة الوعظ والانذار والتأديب

الباب الثامن والعشرون

في سبب رذيلة الانسان وتأخره عن الفضيلة

سبب تأخر الانسان عن الفضيلة لا يخلو من اوجه : اما ان يكون نقصاً في أصل خلقته وعجزاً مركباً في جبلته يتقاعد به عن تحصيل القوة وجمع الآلة التي يتوصل بها إلى السعادة كمن تضعف نحيزتـه (١) أو لا يفضل عن طلب معايشه الضرورية في وقته أو لا يجد هادياً يرشده فمن كان كذلك فمعذور لقوله تعالى (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) وإما انه غير عاجز عن ذلك لكن لم يساعده على بلوغه عمره فذلك قد وقع أجره على الله كما قال الله تعالى (ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) . وإما أن يتفق له مرب ومعلم مضل فيضله عن الطريق وهذا إن لم يتمكن من الاهتداء بمـن يرشده ويسدده يكون معذوراً والاثم فيما يرتكبه لمن قد أضله لا له كما قال الله تعالى في المضلين (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون) . وان تمكن بعد ممن يهديه فلم يهتد به يكون هو ومضله مشتركين في الاثم كما قال الله تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم). وإما أن يكون ضلاله من جهة نفسه لا من جهة شيء

(١) النحيزة الطبيعة

مما تقدم وذلك هو المتوعد بالعذاب فمن أزاح الله علته بالفهم والكفاية والعلم الناصح فرغب عن الاهتداء وترك طريقة الرشاد يكون كمن وصفه الله تعالى بقوله (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منهـا فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين) وبقوله (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى) وأكثر منه عقوبة من استفاد العلم وعرف الحق وسلك من طريق الخير مراحل ثم ارتد عنها راجعا كمن وصفه الله بقوله (ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم) وبقوله (ومن يرتدد منكم عن دينه) الآية

الباب التاسع والعشرون

في أحوال الناس ومنازلهم وفي تعاطي الأفعال المحمودة والمذمومة وطرقها

الناس في إقامة العبادات وتحري الخيرات على أربعة أضرب : الأول من له العلم بما يجب أن يفعل وله مع ذلك قوة العزيمة على العمل به وهم الموصوفون بقوله عز وجل في غـير موضع (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) الثاني من عدمها جميعا وهم الموصوفون بقول الله تعالى (ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) وقوله (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) . الثالث من له العلم وليس له قوة العزيمة على فعله فهو في مرتبة الجاهل بل هو شر منه كما روي ان حكيما سئل متى يكون العلم شراً من الجهل فقال أن لا يعمل به . وروي

عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه انه قال : من كانت ضلالته بعد التصديق بالحق فهو بعيد من المغفرة : الرابع من ليس له العلم لكن له قوة العزيمة فهذا متى انقاد لأهل العلم وعمل بقولهم أنجح في فعله وصار من الموصوفين بقوله تعالى (اولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)

والافعال الجميلة والقبيحة يتقوى الانسان فيها بتكريرها مراراً كثيرة وزمانا طويلا وقتا بعد وقت في اوقات متفاوتة فإن من فعل ذلك في شيء اعتاده وإذا اعتاده تخلق به فالحذق في الصناعة كالكتابة مثلا يكون باعتياده فعل من هو حاذق في الكتابة . والافعال التي تحصل عن الاخلاق بعد حصولها هي بأعيانها الأفعال التي يتعاطاها المتخلق بها حتى تصير خلقا فحق الانسان ان يتدرب بفعل الخير فإن من تعود فعلا صار له ملكة كالصبي قد يلعب بتعاطي صناعة فيؤدي لعبه بها إلى أن يتعلمها

فصل

العبادات تكون محمودة إذا تعاطاها الإنسان طوعا واختياراً لا اتفاقا واضطراراً ودائما لا في زمان دون زمان ولأجل ان ذاتها حسنة لا لأجل غيرها فمن اقامها على هذا الوجه فهو الموصوف بقوله تعالى (واخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما) وقال النبي ﷺ اخلص يكفك القليل من العمل ولا يرضى تعالى إلا الاخلاص كما قال الله تعالى (ألا لله الدين الخالص) فإن من فعل خيراً نحو ان يصلي لأنه اتفق اجتماعه مع المصلين فساعدهم او اكره ان يصلي او صلاها في شهر رمضان مثلا دون سائر الأوقات أو لأجل ان ينال بها جاها او مالا فليس ذلك مما يستحق بها محمدة . وكذا من ترك قبيحا

إما اتفاقاً أو اضطراراً أو خوفاً أو في زمان دون زمان أو لأن ينال بذلك أمراً دنيوياً فليس بمحمود ولهذا قال الله تعالى (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) تنبيها على ان من لم ينفق ماله هكذا ويعلوه خوف من الفقر وحزن على الإنفاق فلا يحصل له بذلك فضيلة ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب) الآية

الباب الثلاثون

في ارتداد الناس من طريق الخير والشر

للانسان فيما يتحراه من الخير والشر حالتان : حالة يتمكن فيها من الارتداد على أدباره فيما يتعاطاه إن خيراً وإن شراً وذلك قبل أن يمعن في سيره ويتناهى في ممره. وحالة يتعذر عليه الارتداد على أدباره بل لا يكون له سبيل إلى الرجوع وذلك إذا أمعن في سيره وتناهى في ممره . وذلك ان كل من كان متعاطيا لفعل خير فتكاسل عنه ومتعاطيا لشر فلم يقلع عنه أورثه كسله ضيق صدر لتحري الخير كما قال الله تعالى (ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا) وانشراح صدره بفعل الشر كما قال تعالى (افمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) فإن استمر على ذلك ولم يقلع أورثه ذلك رينا على قلبه كما قال الله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا

يكسبون) فإن تمادى في ذلك واستمر أورثه ذلك غشاوة كما قال تعالى (فأغشيناهم فهم لا يبصرون) فإن ازداد أورثه ذلك طبعا وختما كما قال تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم) وقوله (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) فإن ازداد صار ذلك قفلا كما قال الله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالهـــا) ثم إذا تمادى صار قلبه موتا قلما ترجى له حياة فلا تنفعه الآيات والنذر كما قال الله تعالى (انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون) ومن حيث ان الله تعالى علم من احوال من بلغ هذا المبلغ انه لا يتوب ولا يؤوب قال الله تعالى (ان الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم واولئك هم الضالون) فلم يرد تعالى انهم إذا تابوا ان تقبل توبتهم بل نبه بذلك على انهم لا يتوبون فتقبل توبتهم فدل منتهى الفعل على مبدأه وهذا من كلامهم كقول الشاعر:

« ولا يرى الضب بها ينجحر » (١)

اي ليس بها ضب فينجحر فنفي انجحار الضب وهو في الحقيقة نفي لوجود الضب بها وعلى هذا دل قوله تعالى (ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا) اي لم يكونوا ليتوبوا فيغفر لهم وعلى هذا قال تعالى (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) تنبيها على ان هؤلاء هم الذين يرجى لهم التوبة . وعلى هذه الجملة المذكورة قال النبي ﷺ اذا اذنب الرجل

(١) جحر الضب دخل جحره وهو كل شيء تحتقره السباع والهوام بأنفسها . وجحر فلان الضب ادخله فيه فانجحر

نكتت على قلبه نكتة سوداء فإذا أذنب ثانياً نكتت اخرى فلا يزال كذلك حتى يصير قلبه كلون الشاة الرمداء . وفي خبر آخر : الذنب على الذنب حتى يسود القلب فلا ترجى له الانابة . وكذا حال الانسان فيما يتعاطاه من فعل الخير فإن من صبر في اقتراف الحسنة أورثه صبره حسناً كما وصف الله به الصابرين في مواضع من كتابه قال تعالى (ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً) فإن استمر في ذلك بعض الاستمرار اهتز ونشط وانشرح به صدره كما قال تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام). فان دام على ذلك امتحن وتطهر قلبه كما قال الله تعالى أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) ويكون كما وصفه في هـــذه السورة (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم) فان تزايد في فعله انضم إليه من الله تعالى باعث يهزه وداع يبعثه عليه كما قال الله تعالى (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) فحق الانسان أن لا يسامح نفسه في الاجتهاد وأن لا يخل بخير تعوده ولا يرخص لها في شر ارتكبه فتعاطي صغير الذنب يفضي إلى ارتكاب الكبير والإخلال بقليل الخير يؤدي إلى الإخلال بكثيره كما قال الشاعر :

وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه وأول الغيث قطر ثم ينسكب

وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله (ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر) فتبين ان قولهم للذين كرهوا ما نزل الله أدى بهم إلى الارتداد على أدبارهم وقال تعالى (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا)

فنبه على ان بعض ما كسبوا أدى بهم إلى الانهزام فالمتدرب في فعل الخير المتقوي فيه يصير بحيث يكون له من الله تعالى واقية تحفظه عن الافعال القبيحة وتحثه على الافعال الحسنة وهذا معنى العصمة وعلى ذلك نبه الله تعالى في صفة أوليائه بقوله (أولئك كتب في قلوبهم الإيمـــان وأيدهم بروح منه) وقال تعالى (رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا ان حزب الله هم المفلحون) والمتدرب بفعل الشر المتقوي فيه قـــد يصير بحيث يكون له بما ارتكبه من القبائح باعث يبعثه عـــلى الافعال القبيحة ويحثه على الافعال السيئة ويسد عليه طرق الافعال الحسنة وعلى ذلك نبه الله تعالى بقوله في صفة أعدائه (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الاذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون) وقال تعالى (ومـــن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون) وقال تعالى (انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون) وقد نسب الله هداية العبد وضلاله جميعاً إلى نفسه من حيث انـــه جعل خلقه وطبعه بحيث إذا تعاطى فعلا إن خيراً وإن شراً فاستمر عليه يصير ذلك طبعاً له ملازماً لا يرجع عنه ولم ينسب المنع من الإيمان إلى نفسه إلا بعد ذكر ما كان من اساءة العبد نحو قوله (انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) فخص الذين لا يؤمنون بأن جعل الشيطان أولياءهم وقال تعالى (ومن الناس من يجادل في الله بغير عـــلم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه انه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير) وقال تعالى (ان الذين لايؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون) قال الشاعر

زين في عينك القبيح كما زين في عين غيرك الحسن

الباب الحادي والثلاثون

في قدر ما في الوسع من اكتساب السعادة

الانسان لما كان على هيئة العالم أوجد فيه كل ما أوجد في العالم وكما أن في العالم أشياء لا يتأتى اصلاحها وحيوانات لا يمكن تأديبها كذلك في الإنسان قوى لا يتأتى إصلاحها وتهذيبها وكان له مع ذلك مثبطات عما أمر به وتقصير عما كلف ولهذا قال الله تعالى : (قتل الانسان ما أكفره من أي شيء خلقه . إلى قوله : كلا لما يقض ما أمره) . فنبه على أن الانسان لايكاد يخرج من دنياه وقد قضى وطره ولذلك يجب على الآنسان أن يجتهد في اداء ما أمكنه ويطهر نفسه بقدر ما يتيسر له والرغبة إلى الله تعالى في تكفير ما قصر فيه ويتحقق أنه إذا فعل ما أمكنه فقد أعذر لقوله تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) . فإذا فعل ما أمكنه يكون قد ترشح أن يزيل الله عنه باقي السيئات كما قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم) وقال تعالى: (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) ولهذا أمرنا تعالى أن نديم الدعاء بقوله (ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا) وقال تعالى : (والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا). فأمرنا أن نرغب اليه في إتمام ما قصرنا عن اكتسابه وقوله (والذي جاء بالصدق إلى قوله :ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون) . ولهذه الجملة قال جعفر الصادق رضي الله عنه: من زعم أنه يصل إلى الحق ببذل الجهود فهو متعن ومن زعم انه يصل اليه بغير بذل المجهود فهو متمن . ولقصور الانسان عن تزكية

نفسه بالتمام قال ﷺ : ما أحد يدخل الجنة بعمله قيـــل ولا أنت يا نبي الله قال ولا انا إلا أن يتغمدني الله برحمته . وقال تعالى تنبيها على هذا المعنى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحـــد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء) . وبيان قصور الانسان عن تزكية نفسه على التمام هو أن الانسان حيوان ناطق متفكر والحيوان جوهر متنفس حساس والمتنفس جوهر متغذ متربٌ لاقوام له إلا بالغذاء كما قال الله تعالى(وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين) فالانسان مادام في الدنيا لا ينفك عن مشاركة البهائم والسباع لكونه حيواناً محتاجاً إلى ما تحتاج اليه . وعن مشاركة الأشجار والنبات لكونه متنفساً محتاجـــاً إلى ما تحتاج اليه . والانسان إذا لم يقتحم العقبه ويفك الرقبة ومالم يتعرٌ عن الحاجات الدنية لم يأمن شياطين الانس والجن وكيف يأمن وقد قال الله تعالى : (وكذلك جعلنالكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) . قال بعض المفسرين : ان ابراهيم لماسأل الله تعالى فقال : (رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) . إنمـــا سأله أن يريه الحياة المتعرية عن العوارض العارضة للحيوانات فقال أولم تؤمن أي أولم تتحقق قال بلى ولكن ليطمئن قلبي أي ليتصور لي كيفية الطمأنينة أي تبري النفس من الشره والحرص والأمل والافتخار واعاين الحالة المذكورة في قوله تعالى : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) فأمره أن يأخذ أربعة طيور . غراباً وهو المخصوص بالحرص والشره . ونسراً وهو المخصوص بالأمـــل وطاووساً وهو المخصوص بالافتخار . وديكاً وهو المخصوص بالشبق فأمره أن يقطعهن ويصرهن أي يدعوهن

ولما فعل ذلك صرن اليه عاجلا فنبه الله تعالى بذلك على أن الانسان وان اجتهد كل الاجتهاد في حذف هذه المعاني عن نفسه وتطهير ذاته منها لن يتطهر مادامت البشرية الدنيوية حاصلة له ولن تحصل له الطمأنينة المطلوبة فأما ما يدعيه قوم أن من الناس من قد تجرد عن هذه الخصائص حتى يستغني عن الطعام والشراب ويصير بحيث لا تعتريه الأخلاق البهيمية فهذا إن حصل في بعض الناس فإن ذلك يكون حينئذ ملكاً متشبحاً يسمى باسم الإنسان على سبيل الاشتراك في الإسم فيكون متبدل الجوهر تبدل جوهر النار إذا صارت برداً وسلاماً وتبدل الدُعموص (١) إذا صار ضفدعاً والدود إذا صار فراشاً وكثيراً من النبات إذا صار جوهراً آخر وحيواناً كدودة القز وليس ذلك بمنكر في القدرة الالهية وهو حينئذ خارج عن الاستصلاح للأفعال التي خلق الانسان لأجلها مستخلفاً في الأرض مستعمراً فيها

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فصل

اعلم أن من هاجر إلى الله وجاهد في سبيله فحقيق أن يهديه إلى سبيله كما وعد به في قوله تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) . وقال والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا إلى قوله : أولئك هم المؤمنون حقاً) : والهجرة العظمى هجران فضول الشهوات والمجاهدة الكبرى مدافعة الهوى كما قال النبي ﷺ : جهادك في هواك . فمن هدي إلى سبيله وأمعن في مسيره مسارعاً في الخيرات ومسابقاً إلى مغفرة ربه فحقيق أن يصير من الابدال ومعنى الابدال هم الذين يبدلون من أخلاقهم وأفعالهم الذميمة أخلاقاً وأفعالا حميدة فيجعلون بدل الجهل العلم وبدل الشح الجود

---

(١) الدعموص بالضم دويبة توجد في الغدران

وبدل الشره العفة وبدل الظلم العدالة وبدل الطيش التؤدة وعلى ذلك دل قوله تعالى : (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق إلى قوله يبدل الله سيئاتهم حسنات) . والانسان إذا صار من الابدال فقد ارتقى إلى درجة الأحباب الذين عناهم الله تعالى بقوله :(فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه) . فيجعله مهيباً في البشر معظم القدر عند كل أحـــد بل قد يبلغ مبلغاً تخضع له البهائم والسباع والوحوش والحشرات كخضوعها لسليمان بن داود عليهما السلام ويصير الحديد له ليناً كما لان لنبيه داود عليه السلام وتصير النار له إذا خاضها برداً وسلاماً كما صارت على إبراهيم عليه السلام وتنقاد له الريح فيركبها كركوب سليمان وتسخّر له المياه فيمشي عليها كتسخيرها للخضر عليه السلام ويكلمه النبات والمعادن والأفلاك والنجوم فتقفه على منافعهـــا وتخبره بسرائرها كمكالمتها لإدريس عليه السلام . روي أنـــه إذا أحب الله عبداً البسه صورة من صورته ونفخ فيه روحاً من روحه حتى ينقاد له كل حجر ومدر ويتواضع له كل طائر وسبع بل قـــد يخصه بكرامات لا يمكن أن يطلع على معرفتها غيرُ من خصّ بها كما قال النبي ﷺ عن ربه : اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقال تعالى إشارة لها هذا المعنى : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) وهذه الأحوال كما تكون للأنبياء فقد تكون للأولياء المخصوصين بالكرامة وليس ذلك بمستبدع ولا منكر في قدرة الله تعالى ولا بمناف في حكمته كما ظن بعض المتكلمين أن ذلك إذا أظهره على غير أنبيائه لا يؤمن أن يفتتن به الناس وانه يؤدي إلى اشتباه أمر المعجزة على الكافة فإن أحكم الحاكمين لا يؤتي هذه المكرمة إلا من هو اهلها كما نبه عليه سبحانه بقوله

(الله أعلم حيث يجعل رسالته : ومن بلّغه هذه المنزلة فقد آتاه لا شك من العلم والحكمة قدر ما يهديه ويؤدبه وعرف ما يمسكه فيستقيم كما أمر فيه فيعرف قدره ولا يتعدى طوره

الباب الثاني والثلاثون

في إثبات المعاد وفضيلة الموت وما يحصل بعده من السعادة

لم ينكر المعاد والنشأة الآخرة الا جماعة من الطبيعيين أهملوا أفكارهم وجهلوا أقدارهم وشغلهم عن التفكر في مبدئهم ومنشئهم شغفهم بما زين لهم من حب الشهوات المذكورة في قوله تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا) واما من كان سوياً ولم يمش مكباً على وجهه لكونه (كالأنعام بل هم أضل سبيلا) وتأمل اجزاء العالم علم ان افضلها ذوات الأرواح وأفضل ذوات الأرواح ذوو الإرادة والاختيار في هذا العالم وأفضل ذوي الإرادة والاختيار الناظر في العواقب وهو الانسان فيعلم ان النظر في العواقب من خاصية الانسان وانه لم يجعل تعالى هذه الخاصية له الا لأمر جعله له في العقبى والا كان وجود هذه القوة فيه باطلا فلو لم يكن للانسان عاقبة ينتهي اليها غير هذه الحياة الخسيسة المملوءة نصباً وهماً وحزناً ولا يكون بعده حال مغبوطة لكان اخس البهائم أحسن حالا من الانسان فيقتضي أن تكون هذه الحكم الإلهية والبدائع الربانية التي أظهرها الله تعالى في الانسان عبثاً كما نبه الله

عليه بقوله تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون) فإن احكام بنية الانسان مع كثرة بدائعها وعجائبها ثم نقضها وهدمها من غير معنى سوى ما تشاركه فيه البهائم من الاكل والشرب والسفاد مع مايشوبه من التعب الذي قد أغنى عنه الحيوانات سفه (كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا) تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا . وما أظهر عند من ألقى عن مناكبه دثار العماية صدق أمير المؤمنين علي عليه السلام في قوله : الدنيا دار ممر لا دار مقر فاعبروها ولا تعمروها وقد خلقتم للأبد ولكنكم تنقلون من دار إلى دار حتى يستقر بكم القرار . وكثير من الجهال اغتروا بقوم وصفوا بوفور العقل في أمور الدنيا حيث أنكروا أمر الآخرة فقالوا لو كان ذلك حقاً لم ينكره أمثالهم مع وفور عقولهم وكثرة فهمهم ولم يعلموا ان العقل وإن كان جوهراً شريفاً فإنه لايتوجه إلا حيث وجه ولا غناء له إلا فيما إليه صرف فإذا صرف إلى أمور الآخرة احكمها وإذا صرف إلى أمور الدنياقبلها وعكف عليها وأخل بما سواها فتقصر بصيرته حينئذ عن الأمور الاخروية كما نبه الله عليه في غير موضع من كتابه وقد تقدم القول فيه

فصل

اعلم ان الموت المتعارف الذي هو مفارقة الروح للبدن هو أحد الأسباب الموصلة للانسان إلى النعيم الأبدي وهو انتقال من دار إلى دار كما روي انكم خلقتم للأبد لكنكم تنقلون من دار إلى دار حتى يستقر بكم القرار فهو وإن كان في الظاهر فناء واضمحلالا فهو في الحقيقة ولادة ثانية قال الشاعر في ذلك

تمخضت المنون له بيوم ... أتى ولكل حاملة تمام

فإنـــه جعل للمنون حملا كحمل المرأة وتمخضاً كتمخضها وولادة كولادتها تنبيهاً على انه أحد أسباب الكون . قال بعضهم الإنسان مادام في دنياه جار مجرى الفرخ في البيضة فكما ان من كمال الفرخ تفلّق البيض عنه وخروجه منه كذلك من شرط كمال الإنسان مفارقة هيكله ولولاهذا الموت لم يكمل الإنسان فالموت إذاً ضروري في كمال الإنسانية ولكون الموت سبباً للانتقال من حال أوضع إلى حال أشرف وأرفع سماه الله تعالى توفياً وإمساكاً عنده فقال تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليهـــا الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) ولهذا تقول العرب استأثر الله بفلان ولحق بالله ونحو ذلك من الألفاظ ولأجل ان الموت الحيواني انتقال مـــن منزل أدنى إلى منزل أعلى أحبه من وثق بماله عند الله ولم يكره هذا إلا أحد رجلين أحدهما من لا يؤمن بالآخرة وعنده أن لاحياة ولا نعيم إلا في الدنيا كمن وصفهم الله تعالى بقوله(ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب ان يعمر) وقال بعض من هذه طريقته شعراً في هذا المعنى

خذ من الدنيا بحظ قبل أن تنقل عنها
فهي دار ليس تلقى بعدها أطيب منها

والثاني يؤمن به ولكن يخاف ذنبه فاما من لم يكن كذلك فإنه يحبه ويتمناه كما أحبه الصالحون وتمنوه وقد روي عن النبي ﷺ قال : من أحب لقاءالله أحب الله لقاءه وقال تعالى(فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) تنبيها على ان من يكون متحققا بحسن حـــاله عند الله لم يكره الموت . فالموت هو باب من ابواب الجنة منه يتوصل إليها ولو لم يكن موت لم

تكن الجنة ولذلك منّ الله تعالى به على الانسان فقال (الذي خلق الموت والحياة) تنبيها على انه يتوصل به الى الحياة الحقيقية وعدّه علينا في نعمه فقال (كيف تكفرون بالله وكنتم امواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) فجعل الموت إنعاما كما جعل الحياة انعاما لأنه لما كانت الحياة الاخروية نعمة لا وصول إليها إلا بالموت فالموت نعمة لأن السبب الذي يتوصل به الى النعمة نعمة ولكن الموت ذريعة الى السعادة الكبرى لم يكن الأنبياء والحكماء يخافونه حتى قال امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام : والله ما ابالي أقع على الموت او يقع الموت علي .وكانوا يتوقعونه ويرون انهم في حبس فينتظرون المبشر بإطلاقهم . وعلى هذا روي: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر . وقيل انه لما مات داود الطائي سمع هاتف يقول اطلق داود من السجن . قال الله تعالى (ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون) تنبيها على ان الموت سبيل الحياة المستفادة عند الله تعالى وقال تعالى (ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) وقال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين) الآية . وعلى هذا نبه الله تعالى بقوله (ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون) فنبه على ان هذه التغيرات خلق احسن فنقض هذه البنية لاعادتها على وجه اشرف كالنوى المزروع الذي لا يصير نخلا مثمراً الا بعد افساد جثتها وكذلك البر اذا اردنا ان نجعله زيادة في اجسامنا يحتاج ان يطحن ويعجن ويخبز ويؤكل فيغير تغييرات كثيرة هي فساد لها في الظاهر وكذلك البذر اذا ألقي في الارض يعده من لا يتصور مآله وحاله فساداً فالنفس تحب البقاء في هذه الدار اذا كانت

قدرة راضية بالاعراض الدنيوية رضا الجعل بالحش او جاهلة بآلها في المآل

الباب الثالث والثلاثون

في فضالة الإنسان إذا شرف على الملائكة

قد تقدم أن الناس ضربان ضرب لم يحظ من الإنسانية إلا بالصورة التخطيطية من انتصاب القامة وعرض الظفر والقوة على الضحك ولغو من النطق يجري مجرى المكاء والتصدية وهو دون البهائم . وضرب هو الانسان وهو المعنى بما خلق لأجله فمن كان كذلك فله حالتان أحدهما حالته وهو في الدنيا ولم يقتحم العقبة ويفك الرقبة بل هو صريع جوعة وأسير شبعة تنتنه العرقة وتؤلمه البقة وتقتله الشرقة ولما يقض ما أمره فهو ما دام في دنياه لا يحكم له بأنه أفضل من الملائكة على الاطلاق . والحالة الثانية قد اقتحم العقبة وفك الرقبة بعد ما قضى ما أمره فصار من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون بل قد جعل في مقعد صدق عند مليك مقتدر ذا حياة بلا ممات وغنى بلا فقر وعز بلا ذل وعلم بلا جهل وقد قامت الملائكة تخدمه كما قال تعالى : (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) فحينئذ من جعل له هذه المنزلة فهو أفضل من كثير من الملائكة أعاننا الله على بلوغ هذه المنزلة وجعلنا من المترشحين لها برحمته إنه على ما يشاء قدير

فهذا آخر ما قصدت من بيان تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين نفعني الله به ومن نظر فيه برحمته إنه على ما يشاء قدير والحمد لله وصلواته على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين

فهرست الكتاب

وهو يشتمل على ثلاث وثلاثين باباً

صفحة
٠٢ ترجمة المؤلف
٠٣ مقدمة الكتاب
٠٩ الباب الأول في معرفة الانسان نفسه
١٢ « الثاني في أجناس الموجودات وموضع الانسان منها
١٤ « الثالث في العناصر التي منها أوجد الانسان
١٦ « الرابع في قوى الأشياء التي جمعت في الانسان
١٨ « الخامس في تكون الانسان شيئاً فشيئاً حتى يصير إنساناً كاملا
٢٥ « السادس في ظهور الانسان في شعار الموجودات وتخصصه بقوة شيء فشيء منها
٢٢ الباب السابع في ماهية الانسان
٢٣ « الثامن في كون الانسان مستصلحاً للدارين
٢٤ « التاسع في تمثيل ذات الانسان وتصويره
٢٩ « العاشر في كون الانسان هو المقصود من العالم وإيجاد ما عداه لاجله
٣١ « الحادي عشر في الغرض الذي من أجله أوجد الانسان ومنازلهم
٣٥ « الثاني عشر في تفاوت الناس واختلافهم
٣٦ « الثالث عشر في سبب تفاوت الناس
٣٩ « الرابع عشر في بيان الشجرة النبويه وفضلها على جوهر سائر البرية
٤١ « الخامس عشر في هداية الأشياء إلى مصالحها

٣٣ الباب السادس عشر في سعادة الانسان ونزوعه اليها
٤٧ « السابع عشر في حال الانسان في دنياه وما يحتاج أن يتزودمنها
٥٠ « الثامن عشرفي تظاهر العقل والشرع وافتقارأحدهما إلى الآخر
٥٢ « التاسع عشر في فضيلة الشرع
٥٤ « العشرون في بيان أن من لم يتخصص بالشرع وعبادة الرب فليس بإنسان
٥٧ الباب الـ ٢١ في ما يتعلق به الشرع من الأفعال
٥٩ « الـ ٢٢ في تحقيق العبادة
٦٠ « الـ ٢٣ في أنواع العبادة من العلم والعمل
٦٣ « الـ٢٤ في كون الغرض من العبادة تطهير النفس واجتلاب صحتها
٦٥ الباب الـ ٢٥ في بيان الأمراض والأنجاس التي لا يمكن إزالتها إلا بالشرع
٦٧ الباب الـ ٢٦ في القوى التي تجب إزالة أمراضها وانجاسها والمعاني التي تحصل منها
٦٨ الباب الـ ٢٧ في كون الانسان مفطوراً على اصلاح النفس
٧٠ « الـ ٢٨ في سبب رذيلة الانسان وتأخره عن الفضيلة
٧٢ « الـ ٢٩ في أحوال الناس ومنازلهم في تعاطي الافعال المحمودة والمذمومة وطرقها
٧٣ الباب الـ ٣٠ في ارتداد الانسان من طريق الخير والشر
٧٧ « الـ ٣١ في قدر ما في الوسع من اكتساب السعادة
٨٢ « الـ ٣٢ في اثبات المعاد وفضيلة الموت وما يحصل له بعده
٨٥ « الـ ٣٣ في فضيلة الانسان إذا شرف على الملائكة

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی